الأدب الجاهلي

تاريخه وقضاياه

دكتور / زكريا النوتي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ... أما بعد

فهذه دراسات في الأدب الجاهلي ، حاولت فيها إلقاء الضوء على أهم ظواهره ، وأبرز قضاياه . وقد جاءت في بابين : الباب الأول : عن الشعر .

وقد بدأت بالحديث عن معنى كلمة " أدب " ، و" جاهلية " ، ثم تحدثت عن حياة العرب في جاهليتهم . وعرجت على أيامهم وأثرها في الأدب . وكان ذلك في فصل تمهيدي .

أما الفصل الثاني : فتحدثت فيه عن مكانة الشعر الجاهلي عند الجاهليين ، وكيف وصل إلينا ، فوقفت طويلا عند الرواية والتدوين ثم عرضت لأهم مصادر الشعر الجاهلي وأولها المعلقات ، عرضت لها عرضا موجزا ، وأتبعتها الحديث عن المفضليات فالأصمعيات .. إلخ

وفي الفصل الثاني عرضت لقضية الانتحال عند القدماء والمحدثين فذكرت رأي ابن سلام ، ثم آراء المستشرقين ، فالعرب المحدثين ، وتوقفت طويلا عند رأي طه حسين ، فذكرت رأيه ورددت عليه .

وفي الفصل الثالث : عرضت لأهم موضوعات الشعر الجاهلي وذكرت أهم خصائصه .

وخصصت الفصل الرابع للتراجم فاخترت شاعرا من مدرسة المعلقات " عنترة " ، ومن مدرسة الصعاليك " تأبط شرا " ، ومن الشواعر

الخنساء .

أما الباب الثاني : فكان خاصا بالنثر الجاهلي ، تحدثت عن أنواعه من خطابة ، حكم وأمثال ، وصايا ، مفاخرات ومنافرات ، سجع الكهان ثم استخلصنا ـ من خلال النماذج ـ خصائص هذا النثر الجاهلي

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في الاختيار والدراسة والعرض ، وأن تفي هذه الدراسات بالغرض منها .

((وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب))

د / زكريا النوتي

القاهرة في ١٥ ديسمبر ١٩٩٠

الباب الأول
الجاهليون والشعر

الفصل الأول :
حياة العرب في الجاهلية

تاريخ الأدب الجاهلي

كلمة أدب :

قال ابن منظور (١) : الأَدْبُ : أصله الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس : مَدْعاة ومأدُبة .. وفي هذا المعنى استعملها الجاهليون .

قال طرفة بن العبد : (٢)

نحن في المَشْتَاة نَدْعو الجَفَلى لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

وذهب أكثر مؤرخي الأدب إلى أن كلمة " أدب " لم ترد في العصر الجاهلي ، والحق غير ذلك ، فقد وردت في كلام " علقمة بن علاثة " أمام " كسرى " في قوله (٣) :

" وليس من حضرك منا بأفضل ممن عَزُبَ عنك ، بل لو قِسْتَ كل رجل منهم ، وعلمتَ منهم ما علمنا لوجدتَ له في آبائه دُنْيًا أندادًا وأكفاء ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف ..... "

ويعني بها هنا : الخلق الكريم ، والخصال الحميدة .

وفي عصر صدر الإسلام استعملت الكلمة للدلالة على هذا المعنى في قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " أدَّبني ربي فأحسن تأديبي " .

---

(١) لسان العرب / مادة " أدب " .
(٢) المشتاة : الشتاء ، جَفَلى : عامة ، ينتقر : أي يَخُصُّ أناسا بالدعوة .
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه - تحقيق د / مفيد قميحة ١ / ٢٨٤

إلا أننا عثرنا على قول لعبد الله بن عباس أورده ابن عبد ربه في العقد يقول فيه :(١) " كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعك جهله وكفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثال " .

ولو صح إسناد هذا القول إلى ابن عباس لكان إرهاصًا باستعمال الكلمة فيما استُعملت فيه في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وبذلك يعد ابن عباس أول من استعملها في هذا المعنى .

وفي العصر الأموي شاع استعمالها وتعدد معناها .. فتارة تدل على حسن الخلق ، وأخرى تدل على المعنى التعليمي القائم على الشعر والنثر والأنساب والأيام والأخبار .. إلخ فمن الأولى قول كعب بن سعد الغنوي(٢) :

حبيبٌ إلى الزُّوَّار غِشيانُ بيته جميل المُحَيَّا شَبَّ وهو أديب

وقال آخر(٣) :

وإني على ما كان من عُنْجُهِيَّتي ولُوثَة أعرابيَّتي لأَديبُ

ومن الأخرى قول معاوية :اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فإن فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم " .

وقد شاع استعمال الكلمة في كل ما من شأنه التثقيف والتهذيب من أنواع العلم ما عدا العلوم الدينية ، وكان الخلفاء الأمويون يختارون معلمين لأبنائهم ، فكانوا يعلمونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم

---

(١) نفسه ٢/ ٢٦١

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٦٨ تحقيق هارون .

وأيامهم ، وسميت تلك الطائفة بـ " المؤدّبين " .

وفي القرنين الثاني والثالث نشأت علوم اللغة العربية بأنواعها ، ونمت واستقلت بأسمائها ، فكان النحو والصرف واللغة ، وأصبح الأدب يدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور ، وما كان يفصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية، وأُلّفت في الأدب بهذا المعنى كتب معروفة مشهورة مثل : الكامل للمبرد (ت ٢٨٥هـ) البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، طبقات الشعراء لابن سلام (ت ٣١٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ تقريبا) وغيرها ..

وعُني العرب بالنقد حتى أخذ في الاستقلال والانفصال عن الأدب وصار علما قائما بذاته ، وأصبح الأدب مقصورًا على الجيد من الكلام شعرا ونثرا ، وذلك في أواخر القرن الرابع .

ومنذ أواسط القرن الماضي أخذت الكلمة تدل على معنيين :

— معنى عام : وهو كل نتاج عقلي مكتوب في الكتب أو مصور في الكلام .

— معنى خاص :وهو الكلام الجيد الذي يحدث في نفس المتلقي لذة فنية سواءأكان شعرا أو نثرا .

وعلى ذلك فالكتاب في النحو أو الهندسة أو في أي فرع من تلك العلوم أدب بالمعنى العام لأنه نتاج العقل الإنساني وتصوير له ، سواء أحدث متعة في نفس متلقيه أم لم يحدث .

والقصيدة الجميلة ، والخطبة المؤثرة ، والرواية الممتعة ، كل هذا أدب بالمعنى الخاص لأنه يحدث لذة في نفس المتلقي . (١)

---

(١) راجع / التوجيه الأدبي ، طه حسين وآخرون ١ — ٣ تاريخ آداب العرب للرافعي ١ / ٣٩ ، العصر الجاهلي لشوقي ضيف .

أما كلمة " جاهلية " :

فهي ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ، وإنما هي من الجهل بمعنى الثورة والغضب . فهي تقابل كلمة " الإسلام " التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل .

وقد جاءت الكلمة في القرآن الكريم بهذا المعنى قال تعالى في سورة البقرة (1) " .... قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " .

وفي الحديث الشريف : " .... أَعَيَّرْتَهُ بأمه !! إنك امرؤٌ فيكَ جَاهِلِيَّةٌ "

قال ابن منظور : هي الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ، ورسوله ، وشرائع الدين ، والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبّر وغير ذلك . (2)

أما في الشعر فقد قال عمرو بن كلثوم : (3)

أَلا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا .:. فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

بمعنى السفه والطيش والغضب والإسراف في القتل .

* العُصُورُ الأَدَبِيَّة :

معظم مؤرخي الأدب العربي يقسمون عصور الأدب العربي إلى خمسة عصور أساسية هي :

١ — العصر الجاهلي : وهو ما كان قبل بعثة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويحدده بعضهم بمائة وخمسين عاما أو أكثر قليلا . (4)

---

(١) الآية ٦٧ من سورة البقرة (٢) اللسان : مادة جهل .

(٣) البيت من معلقته .

(٤) الحيوان للجاحظ ١ / ٧٤ ط الحلبي .

٢ ـ العصر الإسلامي : وينقسم ـ عند بعض النقاد والمؤرخين ـ إلى قسمين :

أ) عصر صدر الاسلام : من بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين سنة ٤١هـ .

ب) العصر الأموى : وهو ما تلا عصر الخلفاء الراشدين سنة ٤١هـ إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ .

٣ ـ العصر العباسى :

أ) العباسى الأول : من قيام الدولة العباسية ١٣٢هـ ـ ٣٣٤ هـ

ب) العباسى الثانى : من ٣٣٤هـ إلى سقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ .

٤ ـ العصر التركى : من ٦٥٦هـ إلى حكم محمد على لمصر ١٢٣٠هـ أو إلى نزول الفرنسيين بمصر ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وينقسم إلى قسمين :

أ) عصر المماليك ب) عصر العثمانيين .

٥ ـ العصر الحديث : من ١٢١٧هـ/١٧٩٨م إلى يومنا هذا .

العَوامِلُ المؤثِّرةُ في الأَدَب

الأدب هو مرآة الحياة ، يتأثر بما تتأثر به .. لأنه صورتها وسجلها ومن أهم ما يؤثر في الأدب :

١ — الاستعداد الفطري " الموهبة " :

وليس كل الناس لديهم هذا الاستعداد ، وإنما هم متفاوتون فيه . فبعض الأمم رُزِقت حظًّا كبيرا منه ، وبعضهم لم يُتَح له إلا القليل، وفي داخل الأمة الواحدة تجد هذا التفاوت أيضا .

وقد رُزِق العرب قدرًا عظيمًا من هذا الاستعداد ، فكان حسهم دقيقا، وطبعهم صافيا فتجاوبوا مع الطبيعة ،وما طرأ عليها من أحداث ، ولذا كانوا أمة شاعرة .

٢ — الحضارة ..

لأنها تدعو إلى الاستقرار والنظام ، فتؤثر في الحياة المادية والمعنوية تأثيرا مباشرا .. وأنت تجد شعر الحضر غير شعر البدو في الألفاظ ، والمعاني ، والموضوعات .. إلخ

بل إن الشاعر الواحد يختلف شعره في باديته عنه إذا تَحَضَّر .. فالحَضَري ألفاظه رقيقة عذبة لينة ، والبدوي خشن جاف غليظ ، ينحت من صخر ، ولذلك قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : " مَنْ بَدَا جَفَا " .

وقالوا : "إن أهل البادية أصفى ذهنا من سكان المدن ، وأهل البلاد الباردة أسرع حركة ونشاطا من أهل البلاد الحارة ، وفي البلد الواحد يفضل أهل الجبال على أهل السهول نشاطا وصفاء ذهن " (١)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية / جورجي زيدان ١ / ٧٣

يقول القاضي الجرجاني (١) :

" إن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق .. وترى الجافي الجلف كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب .. ومن شأن البداوة أن تحدث ذلك .. ثم يقول عن أثر الحضارة :

" فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادى إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ، وعمدوا إلى كل شئ ذى أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا ، وألطفها من القلب موقعا .. "

٣ — العلم والثقافة :

فانتشار العلم واتساع دائرة الثقافة مما يؤثر فى الأدب ، إذ تتسع مادته ، وتتنوع فنونه ، وتجدّ فنون ، وتندثر أخرى .. فانتشار العلم والثقافة فى العصر العباسى — مثلا — كان له أثر عظيم فى الشعر والنثر معا .. وجَدَّت فى الشعر أغراض ، وموسيقى .. إلخ .

٤ — الدين :

وذلك بتأثيره فى العواطف ، وتربيته للنفوس ، وسموه بالإنسان إلى مرتبة عالية من الأخلاق والمعاملات .. ومن هنا تجد فرقا هائلا بين نتاج الأديب المتدين ونتاج غير المتدين .

٥ — السياسة :

ولها تأثير ضخم فى مسار الأدب .. فنظام الحكم الطاغى المُسْتَبِد

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ١٨

يذهب بالحريات ، ويظهر الأدب الذى يتملق الحكام وينافقهم ويمدحهم دون استحقاق وتنعدم مصداقيته .

أما النظام الديمقراطى فإنه يتيح للأدباء أن يعبروا عن مشاعرهم بصدق ، وينتقدوا دون خوف ، ويزدهر الشعر الحماسى والوطنى .. إلخ .

وهناك عوامل أخرى كالاتصال بالثقافات المختلفة ، واهتمام الحكام بالأدب والأدباء ، وعقد المجالس والمنتديات الأدبية والنقدية .. كل هذا وغيره يؤثر تأثيرا عظيما فى الأدب قوةً وضعفًا ، وغزارة وقلة .. إلخ (١)

تاريخُ الأدب والتاريخُ العام

بدا لنا فيما مضى أن تقسيمات المؤرخين للعصور الأدبية جاء تبعًا لوقوع الأحداث الكبرى المؤثرة فى حياة الأمة ، كقيام دولة على أنقاض أخرى ..

وذلك لأن للسياسة تأثيرها فى الأدب .. إذًا هناك علاقة بين تاريخ الأدب والتاريخ السياسى .. فكما أن السياسة تؤثر فى الأدب ، فكذلك الأدب يؤثر فى السياسة. وعلى المؤرخ أن يكون مُلِمًّا بالحياة الأدبية للعصر الذى يؤرخ له سياسيا ، ومؤرخ الأدب ينبغى عليه أن يتعرف أحوال العصر الذى يؤرخ له أدبيا .

ولابد لمن يدرس نتاج أديب من الأدباء أن يتعرف على عصره حتى يقف على المؤثرات فى أدبه . وكذلك حين يتصدى مؤرخ الأدب للتأريخ فلابد له من التعرف على بيئة ذلك الأدب وظروف مجتمعه وحياته .. إلخ .

فكل من التاريخ الأدبى والتاريخ العام مرتبطان ، يؤثر أحدهما فى الآخر ويتأثر به .

(١) راجع لذلك / التوجيه الأدبى ، وأصول النقد الأدبى / أحمد الشايب

الحياة العربية الجاهلية

شبه جزيرة العرب واسعة الأرجاء ، ممتدة الأنحاء ، ومن هنا تفاوت مناخها بدرجة كبيرة .

ومعظم شبه الجزيرة صحراء مقفرة ، على الرغم من إحاطتها بالمياه من جوانب ثلاثة ، وترتفع وسطها هضبة نجد شاطرة الجزيرة شطرين ، فإلى الغرب من الجزيرة وبموازاة البحر الأحمر تمتد سلسلة جبال الحجاز التي سميت بذلك لأنها تحجز بين تهامة في الغرب ونجد في الشرق . ونتيجة لامتداد سلسلة جبال الحجاز بمحاذاة الساحل الغربي فقد أضحى وسط الجزيرة صحراء قاحلا يندر سقوط المطر فوقه .

وتهب على الجزيرة رياح تتسم معظمها بالقسوة ، ولاسيما في فصل الشتاء ، الذي يترك الأرض مجدبة ، ويعدم الناس الماء والكلأ ، ويهلك الزرع والضرع ، ومن هنا كان فخرهم بالجود والكرم في الشتاء خصوصا .

قال شاعرهم :

نَحْنُ في المَشْتاةِ نَدْعو الجَفَلَى ∴ لا ترى الآدِبَ فينَا يَنْتَقِر

وقالت الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لوالينا وسَيِّدُنا ∴ وإنَّ صَخْرًا إذا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وهناك ريح واحدة أحبها العرب ، وتغنوا بها ، وهي ريح الصبا ، وتهب على المناطق التي تنعم بالمناخ الطيب مثل نجد ، التي تفردت بين سائر أقطار الجزيرة بجوها فيها سقط الغيث ، فطَيَّبَ الأديم ، وأنبت الزرع ، وأشبع الضرع ، وأينع الثمر ، وفاح العطر . فَحَرِيٌّ بساكنيها

أن يستمتعوا بها ، وجدير بشعرائها أن يتغنوا فيها فيقول أحدهم : (١)

أقول لصاحبي والعيس تهوى ∴ بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ∴ فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ∴ وريا روضه غب القطار

ولما كان أغلب شبه الجزيرة قاحلا ، كانت المياه عزيزة لديهم إلى حد كبير ، فيها تكون الحياة قال تعالى " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " .

والقبيلة التي ترزق قدرا من الماء تنعم بشيء من الاستقرار ، وقد ظفرت بعض المناطق بهذا القدر مثل بلاد اليمن التي تهب عليها الرياح الموسمية الممطرة ، وغيرها .

أما الصحارى التي تتسم بالجفاف فإنها لم تحرم — أحيانا — من المطر الذي يتتبعه الرعاة حيث ينبت الكلأ الذي تطعمه مواشيهم .

وقد عرف العرب الزراعة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القرى (٢) .

وبعض العرب كانوا يحتقرون الزراعة ويزدرونها ، معتقدين أنها تحد من انطلاقهم وحريتهم ، ومن ثم كان هوان شأن المزارعين ومربي الماشية البطيئة في نظر هؤلاء . يقول العباس بن مرداس السلمي — في معرض فخره بقومه — : (٣)

قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا ∴ دين الرسول وأمر الناس مشتجر

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني ص ٣٧
(٢) انظر / تاريخ الأدب العربي الجاهلي ص ٧٦ د / شوقي ضيف .
(٣) ديوان العباس بن مرداس السلمي — القصيدتان ١٣ ، ١٨

لا يَغْرِسون فَسِيلَ النَّخْلِ وَسْطَهُمُ ... ولا تُخَاوِرُ فى مَشْتاهُمُ البَقَــــرُ (١)

ويقول :

فأما النخيلُ فليست لنـــــــا ... نخيلٌ تُسَقَّى ولا تُؤْبَـــــرُ (٢)

وبعد الزراعة يأتى الرعى من حيث الأهمية ، وعلى من لم يَهْوَ الزراعة أن يتجه إلى الرعى ويختار له الحيوان الذى يتناسب وظروفهم .. وقد كانت الإبل فى المرتبة الأولى حيث تحقق فيها هذا التناسب ، بالإضافة إلى تنوع المنافع التى تتأتى منها . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال سبحانه " والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ .. "

ومن أهم الحيوان لديهم : الخيل ، تلك التى كانت ركنا أساسيا أوليًا فى حياة البدوى إذ كان يعتمد عليها فى الغزو الذى أصبح وسيلة من وسائل الحياة لدى العربى . وذلك لأن العربى إذا ضَنَّت عليه الطبيعة بما يلزمه ليقيم أَوَدَه ، كان عليه أن يغير على قبيلة أخرى ليسلب وينهب ، فلا يجد سوى فرسه يسعفه فى تحقيق ما يريد .

ومن هنا استأثرت الخيل بحب العرب ، فصانوها ، وأكرموها ، حتى إن العربى يبيت طاويا ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وذويه ، فيسقيه المحض ويشرب الماء القراح ، ويُعَيِّر بعضهم بعضا بإذالة الخيل وهزالها وسوء صيانتها . (٣)

---

(١) والفسيل : صغار النخل . تخاور : من الخوار وهو صوت البقر .
(٢) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه .
(٣) الخيل لأبى عبيدة — ط الهند ص ٢

ويعلل الجاحظ هذا الإيثار بقوله : (١)

" لقد وجدوا فيها من خصال الشرف والمنافع ، والغناء في السفر والحضر ، وفي الحرب والسلم ، وفي الزينة والبهاء ، وفي العدة والعتاد ، ما ليس في غيرها من الحيوان "

إن عناية العرب بالخيل تفوق الوصف حتى إن الفارس العربي لم يكن يطمع إلا في أمرين : قيادة الجيش ، وامتلاك فرس يحسن الكر والفر ، ويَجْمَعُ صفات الجياد .

يقول خُفَاف بن نُدْبَة السلمي : (٢)

إنّ أمْسِ لا أملك شَيْئًا فقد ∴ أملك أمر المِنْسَر الحَارِدِ
بالضَّابع الضَّابط تقريبُه ∴ إذ وَنَتِ الخَيْلُ وذو الشَّاهِدِ

ويكفي دليلا على شدة اهتمامهم بها أن حفظوا أنسابها بعد أن سموا كل فرس ، فوجدنا كتبا عديدة في أنساب الخيل لأبي عبيدة وابن الكلبي وابن الأعرابي وغيرهم .

وأما التجارة فقد عمل بها اليهود وبعض قريش ، وفي المدينة كان اليهود يعطون التجارة أهمية خاصة ، حتى اقتصرت تجارة البلح والشعير والقمح عليهم . ومن هنا نشأت علاقات بينهم وبين قريش ، وكانت هناك أسواق عديدة من أشهرها عكاظ ، المجنة ، ذو المجاز وغيرها .

---

(١) الحيوان ١٣/ ١٢٠ تحقيق هارون .

(٢) شعر خفاف ص ٤٤ . المنسر : قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير . الحارد : الجاد القاصد . الضابع : الشديد الجري . الضابط : القوي . التقريب : ضرب من العدو . ذو الشاهد : الذي له من جريه ما يشهد على سبقه وجودته .

وتكاد الصناعة تقتصر على اليهود ، وهى صناعات قليلة كصياغـــة الذهب،وكان لهم فى المدينة حى خاص للصاغة ، جاء ذكره فى إجلاء يهود بنى قينقاع فيما بعد .

حياتهم الاجتماعيـــة

فرضت الظروف الطبيعية والعوامل البيئية على العرب نظام حياتهـــم وطريق عيشهم .

وكان من الطبعى فى ظل هذه الظروف ألا يعرفوا الأُمَّة بمعناهـــا المعروف ، وإنما كانت القبيلة هى مجتمع الإنسان العربى آنذاك ، وتنتظم فى تكوينها الاجتماعى فروعا من البطون والأفخاذ والعشائر .

هذا التجمع فى ظل القبيلة أمر مفروض ، فرضته ظروف الحاجة إلـــى مُعين وَسَند وظهير،ومن أجدر الناس بذلك سوى أولى القربى ؟

وتتألف القبيلة العربية من ثلاث طبقات هى :

أ) الطبقة الأولى :

الأحرار الصرحاء ، وهم أبناء القبيلة الأُصَلاء ، الذين ينتمون إلـــى أب واحد ، وهؤلاء هم أشراف القوم وسادتهم ، إذ يُخْتَار من بينهم شيخ القبيلة .

ب) الطبقة الثانية :

الموالى ، وهم المتقاء من العبيد أو من خلعتهم قبائلهم فلجـــأوا إلى هذه القبيلة ليعيشوا فى كنفها وحمايتها ، ومن هؤلاء الصعاليــــك أمثال : الشنفرى ، تأبط شرا ، السليك بن السلكة وغيرهم .

جـ) الطبقة الثالثة :

العبيد ، الذين أسروا فى غارة ، أو اشترتهم القبيلة أرقاء .

لم تكن الفوضى تسود حياة القبيلة ، وإنما كان لها نظام يحكمها ، وفق تقاليد وأعراف ارتضوها واصطلحوا عليها . ويقوم على رأس القبيلة شيخ تحققت فيه عدة شروط من أهمها : الوقار ، الهيبة ، سداد الرأى ، بعد النظر ، الطموح ، الحزم ، الإيثار ، التضحية .. إلخ .

ولا يشترط كبر السن فيمن يتزعم القبيلة ، فقد يكون صغير السن إلا أن فيه من هذه الصفات ما يتفوق به على المسن ، هذا صخر بن عمرو ابن الشريد أخو الخنساء سودة قومه مع صغر سنه ، لأنه جمع هذه الصفات فاستأهل القيادة . تقول الخنساء فى إحدى مراثيها له :

طَويل النِّجاد ، رفيع العمَـاد ∴ د ، ساد عشيرتَه أمْـرَدَا

إلى أن تقول :

يكلِّفُهُ القومُ ما عَالَهُـمْ ∴ وإن كان أصغرهم مولـدا

وقد استبدت العصبية بحياة العرب الجاهليين ، فكانوا طوع أمرها ، ورهن إشارتها ، حتى إنها تغلغلت إلى معتقداتهم فقالوا " بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا " . والعصبية فى المجتمع القبلى لا تكون لقرابة الرجل وذوى رحمه الأدنين فحسب ، وإنما تكون للقبيلة بأسرها .

أما علاقة القبيلة بغيرها من القبائل فقد قامت على المنافسة والتربص والعداوة ، وقد ظهر ذلك فى الغزو الدائم والسطو على المال والمتاع والتعدى على الحمى والجار ، فبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة

كان التخاصم بين القبائل في سبيل الشرف والرياسة أو المال والعيش لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء ، مصبوغة بالدم ، لا نكاد نرى سلما دائما وهدوءا شاملا ، ولا يكاد يمر يوم دون غارة شنعاء أو قتال رهيب حتى عرفت عنهم الأيام " (١)

ولما كانت كل قبيلة تنتظر غفلة لقبيلة أخرى حتى تغير عليها ، أو تتوقع اعتداء على حرماتها ، فيجب عليها دفع العدوان كان عليها أن تتقوى بنفسها أو بغيرها ، ومن هنا لجأت القبيلة الضعيفة إلى أخرى تتقوى بها فكانت الأحلاف بين القبائل . وكانت لهم مظاهر شتى في عقد هذه الأحلاف ، ومن أشهر أحلافهم :

" حلف الفضول " الذى حضره الرسول قبل أن يُبْعث ، و " حلف المطيّبين " وغيرهما .

لقد كان الغزو وسيلة من وسائل العيش لدى العربي الجاهلي ، حتى بلغ بهم الأمر أن يغيروا على أقربائهم إذ لم يجدوا سواهم ، قال شاعرهم :

وأحيانًا على بَكْرٍ أخينا ∴ إذا ما لَمْ نَجِدْ إلا أخانا

وكأن العربي لم يكن له شغل سوى الحرب ، فهو إما مُغيرٌ ، وإما مُغَارٌ عليه ، طالب أو مطلوب ، واتر أو موتور ، يقول دريد بن الصمة :

يُغَارُ علينا وَاتِرِينَ فَيُشْتَفَى ∴ بنا إن أُصِبْنا أو نُغِيرُ على وِتْرِ

قَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بيننا ∴ فما ينقضي إلا ونَحْنُ على شَطْرِ

---

(١) تاريخ الشعر السياسي / أحمد الشايب ص ٢٧

من هنا كثرت " الأيام " ، حتى إنهم ذكروا أن " أبا الفرج الأصبهانى " قد استقصى تلك الأيام فوصل عددها سبعمائة وألف يوم .

وهناك كتب كثيرة فى أيام العرب منها : النقائض لأبى عبيدة ، أيـــام العرب قبل الإسلام لأبى عبيدة ، باب للأيام فى العقد الفريد ، وأيـــام متفرقة فى الأغانى ، وكذا فى مجمع الأمثال للميدانى ، وفى نهاية الأرب للنويرى ، وفى الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطى ، وغيرها .

* أيام العرب في الجاهلية :

الأيام : جمع يوم وقد أطلقها العرب على وقائعهم وحروبهم ، ولهذه التسمية أسباب منها : (١)

أ) أن قولهم " أيام العرب " أصله " وقائع أيام العرب " ثم حذفت كلمة " وقائع " للإيجاز .

ب) أن كلمة يوم يعنى بها وقت الشدة والاختبار ، قال ابن منظور وربما عبر العرب عن الشدة باليوم فقالوا : يَوْمٌ أَيْوَم .

جـ) أنهم سموا الوقائع أياما لأنها كانت غارات طارئة تقع الغارة منها فى يوم وتنتهى بانتهائه ، هذا على الرغم من امتداد بعض وقائعهم إلى عشرات السنين ، لكنها بدئت بيوم .

د) أن اليوم يطلق ويراد به النهار دون الليل ، والعرب يقاتلون وقت النهار فإذا دخل الليل كفوا عن القتال ، وفى ذكر الغارات ترد كلمة " الصباح " كثيرا مثل قول "هند بن خالد بن صخر بن الشريد" يصف غارة لهم : (٢)

جَلَبْنَا من جَنُوبِ الفَرْدِ جُـرْدًا .:. كَطَيْرِ الماءِ غَلَّسَ للـورود

اى انطلقنا بخيل قصيرة الشعر ، يشبه الطير حين يقوم ليرد الماء مع انفجار الصبح .

---

(١) راجع : اللسان ، شعر الحرب / د / على الجندى ص ١٩

(٢) الفرد : اسم جبل أو مكان . جُرْدًا : أى خيلا قصيرة الشعر ، وقيل الأَجْرَد هو الذى يسبق الخيل ويتجرد عنها لسرعته ، غلس للورود : أى ورد الماء وقت انفجار الصبح .

وقال العباس بن مرداس : (١)

صَبَحْناكُمُ العُوجَ العَنَاجِيجَ بالضُّحَى ... تَمُرُّ بِنَا مَرَّ الرِّياحِ السَّواهِك

وقال الأعشى :

وجُنْد كسرى غَداة الحِنْوِ صَبَّحَهُم ... مِنَّا غطاريفُ تَرْجُو المَوْتَ وانْصَرفُوا

وقد جاء في القرآن الكريم " وذَكِّرْهُمْ بأيَّامِ اللّه " أي خَوِّفهم بما نزل بعاد وثمود وغيرهم .. (٢)

وهذه الأيام منها ما كان بين العدنانيين والقحطانيين ، ومنها ما كان بين بكر وتميم ، وبين قيس وكنانة ، وبين قيس وتميم ، وبين ربيعة فيما بينهم مثل حروب بكر وتغلب ... إلخ .

وقد يكون سبب اليوم تافها مثل تنافس على امرأة كما حدث في يوم حَوزة الأول بين بني سليم وبني مرة (٣) ، أو يكون الداعي هو الغزو طمعا في الأسلاب والغنائم وهو سبب اقتصادي ... إلخ .

* أثر أيام العرب في الأدب الجاهلي :

يقول ابن سلام (٤) :

" وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلّل شعر قريش

---

(١) ديوانه ق ٦ / ١٣١ . العُوج : الخيل التي في قوائمها اعوجاج يساعدها على شدة الجري . العناجيج : جمع عنجوج : الرائع من الخيل . الرياح السواهك : العواصف الشديدة المرور .

(٢) اللسان " يوم " (٣) راجع العقد الفريد ٦ / ٢٨ ، ٢٩

(٤) طبقات الشعراء ٢١٧

أنه لم يكن بينهم نائرة " أى حقد وفتنة .

أى أن الحرب لها أثر بالغ فى إلهاب المشاعر وتفجير العواطف لدى الشعراء ، وقد حدث ذلك بالفعل فى العصر الجاهلى إبان المعركة وبعدها ، والشعر إبّان المعركة يختلف عنه بعدها ، فالشاعر أثناء المعركة عَجِلٌ متسرع والموقف لا يستدعى الإطالة والتفاصيل ، أما بعد المعركة فهو إما منتصر وإما منهزم فيأخذ فى عرض الحرب بتفاصيلها ومعاركها وإسهاماته الفردية فى إحراز النصر ، أو الاعتذار عن الهزيمة وما إلى ذلك .

من هنا وجدنا " الرجز " يرتجله الشعراء أثناء المعركة لما فيه من تناسب وظروفهم تلك .

وقد كثر شعر " الفخر والحماسة " واحتل أوسع مساحة على خريطة شعر الحرب ، فالشاعر يفخر بنفسه وبقبيلته ليرهب الخصوم ، ويضعف معنوياتهم ، فهو بمثابة الخط الأول للهجوم ، وما أشبه هذا الشعر ودوره بسلاح الشئون المعنوية فى تشكيلات القوات المسلحة الآن .

والشاعر يحمّس نفسه وقومه على خوض غمار الحرب ليصل مجدا طريفا بتليد ، ويذم الجبن والخور والضعف ، فهو تعبئة عامة ، وإثارة لحمية القوم وشحذ لهممهم ..

ولولا الأيام ما كان شعر الفخر والحماسة بهذه الكثرة التى وصلتنا .

وقد كانت هذه الأشعار مصوِّرة أصدق تصوير لحياة العرب من جميع جوانبها ولم يكن شعر الحروب مقصورا على غرض الفخر والحماسة وإنما كان منه " المدح " . هذا "صخر بن عمرو بن الشريد" يمدح غلمان

قومه الذين تصدّوا لغَطَفَان حين انتهزت فرصة خروج فرسان سليم في غارة لهم ، فأغاروا على ديارهم وتصدى غلمان سليم لغطفان فهزموهم ورد وهم خائبين يقول صخر :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا قَوْمَنَا إِذْ دَعَاهُمُ ∴ بِعَدْنِيَّةَ الْحَيُّ الْخَلُوفُ الْمُصَبَّحُ
وغلمانُنَا كانوا أُسُودَ خَفِيَّةٍ ∴ وحُقَّ عَلَيْنَا أَنْ يُثَابُوا وَيُمْدَحُوا
هُم نَفَّرُوا أَقْرَانَهُم بمُضَرَّس ∴ وسَعْرٍ وذادوا الجيش حتى تزحزحوا
كأنهم إذ يطردون عشية ∴ بقُنَّة ملحان نعام مروح

وكان من آثار الحروب أيضا شعر " الرثاء " ، بكاء قتلى المعارك والتوجع لمصابهم. ومن خير ما يصور هذا الفن شعر " الخنساء " في رثاء أخويها " صخر ومعاوية "

وكما أثّرت الأيام في الشعر كان لها تأثيرها في النثر في مجال الخطابة والمنافرات ، والمحاورات ... الخ .

فليس كل العرب شعراء ، وإنما كان من بينهم الخطباء الموهوبون الذين لا يقلون في تأثيرهم في القوم عن الشعراء ، ومن هنا كان المتحدث الرسمي باسم القبيلة أمام الملوك والرؤساء خطيبهم . حتى ذهب بعض النقاد إلى القول بأن الخطابة نافست الشعر في العصر الجاهلي وربما فاقته .

الفصل الثاني :
الشعر الجاهلي

مكانة الشعر الجاهلي عند الجاهليين

اهتم العرب بالشعر اهتماما كبيرا ، واعتزوا به اعتزازا بالغا .... حتى إن القبائل العربية "إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج " (١)

غير أن لمولد الشاعر — من بين هذه الثلاث — احتفاء خاصا ، لأن الشاعر كان بمثابة جهاز الإعلام في قبيلته .

وليس أدل على عظم مكانة الشعر والشاعر ، وقدرهما لدى العربي من أن بيتًا — أو بيتين من الشعر — قد يحط من قدر قبيلة كبيرة ويهون من شأنها ، وأن بيتا آخر قد يرفع من شأن قبيلة ضعيفة خاملة الذكر .

وأمثلة ذلك كثيرة منها :

١ — " ألا ترى إلى بني عبد المدان الحارثيين ، كانوا يفخرون بطول أجسامهم وقديم شرفهم حتى قال فيهم حسان بن ثابت " :

لا بَأْسَ بالقَوْمِ من طُولٍ ومن غِلَظٍ ∴ جِسْمُ البِغالِ وأحلامُ العَصافيرِ

فقالوا له : والله يا أبا الوليد ، لقد تركتنا ونحن نستحي من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها ، فقال لهم : سأصلح ما أفسدت .

فقال فيهم :

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/٣٧

وَقَدْ كُنَّا نَقُولُ إِذا رَأَيْنَا ∴ لِذِى جِسْمٍ يُعَدُّ وذى بيان
كأنك أَيُّها المُعْطَى لسانًا ∴ وجِسْمًا من بنى عَبْدِ المَدَان (١)

٢ — وكان " المحلق بن حنتم بن شداد " خاملا ، لا يذكر حتى طرقه الأعشى فى فتية ، وليس عنده إلا ناقة ، فذبحها ، وشوى بعضها واشترى ببعضها الآخر شرابا قدمه للأعشى وصحبه ، فغدا الأعشى يقول من قصيدة له :

لَعَمْرى لقد لاحَتْ عيونٌ كثيرةٌ ∴ إلى ضَوْءِ نارٍ فى يَفَاعٍ تُحرق
تُشَبُّ لمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانها ∴ وبات على النار النَدَى والمُحَلّق

فأخذ الخطاب يتهافتون على بناته يخطبونها ، وذلك لأن الأعشى رفع ذكره . (٢)

٣ — وكان بنو" أنف الناقة "يغضبون من لقبهم هذا ، حتى قال فيهم الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذنابُ غيرهم ∴ ومن يُسَوِّى بأنف الناقة الذَّنَبَا

فعاد هذا الاسم فخرا لهم وشرفا فيهم . (٣)

لقد كان الشاعر فى ذلك العهد " بمثابة الصحفى اليوم ، فالتمس الملأ رضاه وتزلف إليه الأمراء والأعيان " (٤)

---

(١) العقد الفريد ٦/١٧٦، ١٧٧
(٢) نفسه ٦/١٧٧، ١٧٨
(٣) نفسه ٦/١١٧ (بايجاز)
(٤) تاريخ العرب (مطول) فيليب حتى ١/١٣٠

رواية الشعر العربي وتدوينه

وما دامت للشعر تلك المكانة حق إذا على هؤلاء المحتفين به أن يحافظوا عليه ويحفظوه .. فكان لذلك طريقان هما الرواية والتدوين .
ولكن أيهما أسبق ؟ الرواية أم التدوين ؟
أكثر الباحثين على أن الرواية أسبق من التدوين ، لأنها أعم وأشمل إذ أن القراءة والكتابة هما وسيلتا التدوين ، وهما غير شائعتين في الجاهلية. وأما الرواية فسبيلها حافظة واعية وذاكرة لاقطة ، وهما أمران قد يتوافران كثيرا حتى لغير الكاتبين والقارئين .

* أولا : الرواية :

ويقصد بالرواية : الحمل والحفظ والاستظهار ، والنقل بمعنى : عدم الاستعانة بالكتابة والقراءة .

وهذا يعني أنه " كان لكل شاعر جاهلي كبير — على وجه التقريب — راوية يصحبه يروى عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس .... وكان هؤلاء الرواة يعتمدون — في الغالب — على الرواية الشفوية ، ولا يستخدمون الكتابة إلا نادرا ، وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه " (١)

* رواة الشعر الجاهلي :

١ — بدهي أن يكون أكثر الناس اهتماما بشعر الشاعر هم أهله وعشيرته إذ أنهم يعدونه لسان حالهم ، المعبّر عما في نفوسهم ، الذيع

(١) تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ترجمة د / عبد الحليم النجار ١ / ٦٤ ، ٦٥ دار المعارف .

لأخبارهم ، المسجل لمفاخرهم ، فكانوا بمثابة السِّجل الأصلى لآثار شعرائهم وآدابهم ، يحفظونها عن ظهر قلب ، ويردّدونها فى كل مكان ويتغنّون بها فى كل زمان ....

وقد يبلغ بهم عشق النص الشعرى والإعجاب والولوع به درجة تلهيهم عن أعمالهم العظيمة .(١)

ولمثل هذا هجا شاعر — من قبيلة بكر — قبيلةَ تغلب قائلا :(٢)

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كل مَكْرُمَةٍ ∴ قصيدةٌ قالها عَمْرُو بن كُلْثُوم
يَرْوُونها أبدًا مُذْ كان أولُهم ∴ يا لَلرِّجال لشعر غَيْرِ مَشْئُوم

٢ — وقد قام الشعراء أنفسهم بدور هام ضخم فى مجال الرواية حتى جعلوا الرواية وحفظ الشعر واستظهاره مدرسة يتعلم فيها الشعراء المبتدئون فنّ الشعر على يد خبير به ، فيتعلمون قوانينه ، ويتمرسون بأساليبه وفنونه ، مبدعين حافظين ، راوين ..(٣)

وأكثر الناس تعلقا بحفظ الآثار الشعرية هم الموهوبون الذين يفيدون ويستفيدون ، فهم محافظون على هذه الآثار من الضياع ، وهم بذلك يصقلون مواهبهم ، ومن هنا نشأت السلاسل الشعرية التى كان منها :

* سلسلة " أوس بن حجر " الذى كان زوجا لأم زهير بن أبى سلمى فنشأ هذا راوية لأوس ، وعن زهير أخذ ابنه كعب .
* سلسلة " المسيب بن علس " ، خال الأعشى ، راويته ... الخ

---

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى / على الجندى (بتصرف وإيجاز) ص ١١٣

(٢) الأغانى ٢/١٦٥ ، الشعر والشعراء ١/٢٣٦ مع اختلاف يسير

(٣) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/سعد ظلام ص ٤٩، ٤٢ (بتصرف)

كما وجدنا ما يمكن أن نسميه بـ " البيوتات الشعرية " مثل : " بيت الشريد " في بني سليم ، إذ فيه من آل الشريد : الشريد الأب ، وصخر ومعاوية والخنساء أبناء الشريد ... وفيه خالد بن صخر ، وهند ومالك ابنا خالد ، كلهم شعراء .

وبيت " مرداس بن أبي عامر السلمي " فهو شاعر ، وأبناؤه : العباس ومعاوية وسراقة وأنس ... شعراء . ونجد ابني العباس : الحارث وأنسًا شاعرين ، ثم الحارث بن أنس بن عباس .. هؤلاء جميعا شعراء من بيت مرداس .

وكل بيت كانت فيه الخنساء هو بيت شعر ...

وقد نجد اهتماما بالرواية من أفراد لا يمتون إلى الشعراء بصلة رحم أو قرابة ولكنه الشعر ربط بينهم .

وتغنى الشعراء بأساتذتهم من الشعراء الفحول الذين كان لهم فضل عليهم في تغذية شاعريتهم وصقل مواهبهم .. ومن هؤلاء " الفرزدق " في قوله المشهور : (١)

وَهَبَ القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا
وأبُو يزيدَ وذُو القُروحِ وجَرْوَلُ (٢)

والفَحْلُ علقمةُ الذي كانت لـه
حُلَلُ المُلوكِ كلامُه لا يُنْحَلُ

---

(١) النقائض ٢٠٠ ــ ٢٠١ وديوانه ٢ / ١٥٩ دار صادر .

(٢) النوابغ : هم النابغة الذبياني ، والشيباني ، والجعدي ، أبويزيد : المخبَّل السَّعدي ، ذو القروح : امرؤ القيس ، جَرْوَل : الحطيئة .

وأخو بني قيس ، وهُنَّ قَتَلْنَه ∴ ومهلهل الشعراء ذاك الأول (١)
والأعشيان كلاهما ومرقّش ∴ وأخو قضاعة قوله يُتنخل (٢)
وابنا أبي سُلمى زهير وابنه ∴ وابن الفُرَيْعَة حين جد المقول (٣)
إلخ . . .

٣ — ولم تقتصر رواية الشعر على أبناء القبيلة ، ولا على الشعراء الذين ذكرناهم وإنما " كان هناك رواة للشعر الجاهلى ، لا يختصون بقبيلة معينة ولا بشاعر معين ، وإنما كانوا يتناقلون الشعر من كل الشعراء ومن كل القبائل ، ويملأون محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، باعتبارهم سجلا عاما للأخبار والأنساب ، والمآثر والوقائع ، ولم يكن لهم شغل سواه " (٤)

وكان من هؤلاء من يروى شعر الأيام — مثلا — لكل القبائل ، ومن هنا وجدنا شعرًا لكثير من الشعراء في هذه " الأيام " في حين لم يبق لهم شعر فيما سوى الأيام .

٤ — كما كانت حاجة النسّابين إلى معرفة الشعر وروايته ماسّة ، فدخلوا ضمن هؤلاء الرواة .. ولذلك وجدنا شعرًا في كتب الأنساب ، يثبت نسب الشاعر إلى قبيلة ما ..

---

(١) أخو بني قيس : طرفة . هن قتلنه : أي القوافي لأنها كانت سببا في قتله ، إذ كان طويل اللسان في الهجاء .
(٢) الأعشيان . أعشى قيس وأعشى باهلة ، أخو قضاعة : أبو الطمحان
(٣) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .
(٤) من الظواهر الفنية ٤٥

* طرق رواية الشعر الجاهلي :

ويمكن حصر طرق رواية الشعر الجاهلي فيما يلي :

١ — الأسواق الأدبية :

وهذه الأسواق قد تعقد مرة في الشهر أو في السنة ، وكانت أصلا للبيع والشراء ثم اشتغلت في المفاخرة وتناشد الأشعار والتنافس فيها :

ومن أشهر هذه الأسواق : سوق عكاظ .

" قال الأصمعي : كان النابغة يضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها " (١)

فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم الشعراء ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته ، فقال لها النابغة :

والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك : فقبض النابغة على يده ، ثم قال : يا ابن أخي ، إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مُدْركي ∴ وإن خلت أنّ المُنْتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك ! فقالت الخنساء : والله ولا ذا خُصْيَيْن .

وقيل : إن النابغة قال لحسان : إنك لشاعر ، وإن أخت بني سليم لبكاءة (٢) .

وبدهي أن جمهور الحاضرين من الشعراء المبتدئين وغيرهم من الرواة

---

(١) الشعر والشعراء ١٦٨ ، ٣٤٤

(٢) نقد الشعر / قدامة بن جعفر ص ١٨ والموشح للمرزباني ص ٦٠

ومحبي الشعر ، وذوي القربى من كل شاعر مشترك — كانوا جميعا يسمعون فيسجلون بذاكرتهم وحافظتهم ما يُنشَد من الشعر وما يُتلى من الأحكام وبذلك وصل إلينا .

٢ — مجالس الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومجالس الخلفاء :

أ) فقد كان عليه الصلاة والسلام يستنشد الصحابة الشعر ، ويسائلهم عنه ، ويستعيد ما يستحسنه منه ، ويبدي إعجابه ببعضه ، وقد ينهى عن رواية بعضه فقد قال أبو وداعة :

رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبا بكر — رضي الله عنه — عند باب بني شيبة ، فمر رجل وهو يقول :

يا أيُّها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَه ∴ ألا نَزَلْتَ بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم ∴ منعوك من عُدْمٍ ومن إقْتَار

فالتفت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أبي بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيُّها الرجلُ المُحَوِّلُ رحله ∴ ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلتَ برحلهم ∴ منعوك من عدم ومن إقْرَافِ
الخالطين فقيرَهم بغَنِيِّهم ∴ حتى يعودَ فقيرُهم كالكافي
ويكلِّلون جفَانَهم بسَدِيفهم ∴ حتى تغيب الشمس في الرَّجَّاف (١)

فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : هكذا سمعت الرواة ينشدونه (٢) .

---

(١) الرجاف : البحر .
(٢) الأمالي : لأبي علي القالي ١/٢٤١

وأُنشِد النبي — صلى الله عليه وسلم — قول أمية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنـــا ∴ بالخير صبحنا ربي ومسانـــا

(خمسة أبيات) فقال — صلى الله عليه وسلم — : إن كاد أمية ليسلـــم وقال مرة أخرى : آمن شعره وكفر قلبه . (١)

ب) وكان الصديق أبو بكر يحفظ كثيرا من الشعر الجاهلي :
فقد رقي المنبر يوما وقال — فيما قال — يخاطب الأنصار (٢) :
فنحن وأنتم كما قال الغنوي :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت ∴ بنا نَعْلُنا في الواطئين فَزَلَّـــتِ

أبَوْا أن يَمَلُّونا ولو كانت امُّنـــا ∴ تلاقي الذي يلقون منا لَمَلَّـــتِ

هُمُ أَسْكنونَا في ظلال بيوتهـــم ∴ ظلال بيوتٍ أدْفأت وأكَنَّـــتِ

وأما عمر ، فقد كان عالما بالشعر ، كما كانت له أحكام نقدية على الشعراء وأشعارهم تنم عن حاسة التذوق الشعري النافذة . وكان يحفظ كثـــيرا من الشعر الجاهلي .

حتى قال بن سلام : " كان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — لا يكـــاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر " (٣)

وهكذا كان الخلفاء من بعده . بل إن سائر الصحابة كانوا يحفظون مـــن

---

(١) الأغاني ٤/١٢٩، ١٣٠
(٢) راجع / مصادر الشعر الجاهلي د / ناصر الدين الأسد ص ٢٠٩
(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٤١
(٤) مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٠٤

الشعر الجاهلي ويروونه في مجالسهم .

قيل للحسن البصري : أكان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يمزحون ؟ قال : نعم ، ويتقارضون من القريض وهو الشعر [١]

٣ — المجالس الأدبية :

وأعني بها : مجالس الشعراء والنقاد والعلماء والرواة .

ففي تلك المجالس كان ينشد الشعر أو يروى ، وتعقد المناظرات والموازنات الأدبية .

من ذلك — مثلا — ما جاء أن الأصمعي قال يوما [٢] :

ما أحسن ما قيل في صفة امرأة عجزاء خميصة ؟

فأنشد قول الأعشى : [٣]

صِفْرُ الوِشَاحَيْنِ ، مِلْءُ الدِّرعِ بَهْكَنَةٌ .·. إِذَا تَأَتَّى يَكَادُ الخِصْرُ يَنْخَزِلُ

وأنشد قول عَلْقَمة بن عبدة [٤] :

صِفْرُ الوِشَاحَيْنِ مِلْءُ الدِّرعِ خَرْعَبَةٌ .·. كأنها رَشَأٌ في البَيْتِ مَلْزُوم

وأنشد قول ذي الرمة : [٥]

ترى خلفها نصفا قناة قويمة .·. ونصفا نقًا يرتجُّ أو يَتَمَرْمَرُ

فقال الأصمعي :

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي صـ ٢٠٤

(٢) أمالي المرتضى ١ / ٤٦٠ ، ٤٦١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٣) ديوان الأعشى صـ ٥٥ تحقيق د / محمد محمد حسين . صفر الوشاحين : أي أنها خميصة البطن ، دقيقة الخصر وشاحها يقلق عنها ، والبهكنة : الكبيرة الخلق . تأتى : ترفق في المشى .

(٤) ديوانه ١٣٠ والمفضليات ٣٩٠ / ١٣ . الخرعبة : الناعمة . الرشأ : الظبي الصغير . ملزوم : مربى في البيوت وهو أحسن له .

(٥) ديوانه صـ ٣١٩ ط المكتب الاسلامى . يتمرمر : يتحرك تحركا دون الارتجاج .

أحسن ما قيل فيه قول أبى وجزة السعدى : (١)

أدماء فى وضح يكاد إزارهـــا ∴ يقوى ويشبـع ما أحب إزارهـــا

٤ — الغناء ومجالس اللهو :

فقد كان للخلفاء والأمراء قَيْنَاتٌ تغنين لهم ، كما كان لهم غلمـــان وعبيد يغنون لهم شعر الجاهليين وغيرهم .

وقد أورد الأصفهانى فى أغانيه عددًا كبير من أصوات المغنين والمغنيات الذين شدوا بأشعار الجاهليين حتى إنه سمى كتابه " الأغانى " .

٥ — علماء اللغة والشواهد والسير والمغازى :

فكتب اللغة والمعاجم والبلدان وغيرها زاخرة بالشعر الجاهلـــى ، وكذلك كتب السير والمغازى تورد قصائد كاملة للشعراء الجاهليين .

وهكذا كان دور الرواة فى حفظ الشعر عظيما ، غير أنه كان من بـــين الرواة من يقوم بإصلاح الشعر .. وكان من بينهم من يضع الشعر وينحلـــه وهؤلاء وأولئك كان بعضهم من العلماء ...

لكن هناك طبقة من العلماء اتخذت من الشعر موضوعا علميا تدرســـه دراسة وتأخذه عن شيخ أو أستاذ فى مدرسة من مدارس علم الشعر وروايتـــه آنذاك ، وكانوا يعقدون مجالسهم فى المساجد أو منازل الشيوخ ويأتـــى

---

(١) الأدمة هنا : لون أشرب بياضا . الوضح : البياض . والإقواء فـــى الأصل نفاذ الزاد ، والمراد به هنا : دقة خصرها . راجع أمالـــى المرتضى ١ / ٤٦٠ ، ٤٦١

إليهم التلاميذ فيقرأ عليهم ديوان الشاعر أو ديوان القبيلة ، والتلاميذ يتابعون القراءة في نسخ بين أيديهم أو يستمعون لمن يقرأ .. الخ (١)

ولكن يبدو أن هذه الطبقة من العلماء الرواة لم تكن موجودة قبل مطلع القرن الثاني الهجري ، وربما كان أول شيوخها الذين مهدوا لها الطريق لمن تبعهم فكانوا هم الرواد السابقين : (٢)

أبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤هـ ، وحماد الراوية ت ١٥٦هـ ، كما سيأتي في التدوين .

ثانيا : التدوين :

وهو يعتمد على الكتابة .. فهل عرف الجاهليون الكتابة ؟

نعم عرف الجاهليون الكتابة بالأدلة الآتية :

١ — هذه النقوش الحجرية المكتشفة التي تدل على أن العرب الجاهليين عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي ، وأنهم كتبوا بهذا الخط العربي قبل الإسلام بثلاثة قرون على الأقل .. (٣)

٢ — استخدام الشعراء الجاهليين لألفاظ (الكتابة ، الكتاب ، الخط ..) وما أشبهها من أدوات الكتابة ، وتشبيههم الأطلال ببقايا خطوط على الرق ..

كل ذلك يدل على وجود الكتابة في الجاهلية .

---

(١) ، (٢) مصادر الشعر الجاهلي ٢٥١ ، ٢٥٢ (بتصرف وإيجاز) .

(٣) نفسه ١٠٧ بتصرف كبير .

ومن شعرهم في ذلك قول امرىء القيس : (١)

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُه فشَجانـــي ∴ كخَطِّ زَبُور في عَسِيبِ يَمانـــي

وقول لبيد بن ربيعة العامري — في معلقته — : (٢)

وَجلَا السيولُ عن الطلول كأنها ∴ زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُهـــا

وقول خُفَاف بن ندبة السلمي : (٣)

ما هاجك اليوم من رَسْمٍ وأطـلال ∴ منها مبينٌ ، ومنها دارسٌ بالي

بين السّنام وهضبيه وذى بقـــر ∴ كأنها صحفٌ يخطُّها تالـــي

ومثل هذا كثير في أشعارهم .

٣ — كتابة الجاهليين قصائدهم المختارة، وتعليقها على أركـــان الكعبة ، ومن هنا سميت المعلقات ، على خلاف في ذلك كما سيأتي ..

٤ — كتابة قريش صحيفة تعاقدوا فيها على بني المطلب على ألا ينكحوا اليهم ، ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، ثـم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيـــدا على أنفسهم ... وقد سلط الله الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيهـــا اسما لله الا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان ... (٤)

٥ — استخدام الرسول — صلى الله عليه وسلم — الكتابة في رسائلـه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام . (٥)

---

(١) ديوانه ص ٨٥ والبيت مطلع قصيدة .
(٢) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ٥٢٦
(٣) شعر خفاف ص ٨٨
(٤) سيرة ابن هشام ٢ / ١٧٥٣ — ٢١ تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، والبداية والنهاية ٣ / ٨١
(٥) في تاريخ الأدب الجاهلي د / علي الجندي ص ١٤٠ بتصرف وايجاز .

٦ — كتابة الوحي " القرآن الكريم " .

وبدهي أن المسلمين لم يخترعوا الكتابة ، وإنما وجدت قبل مبعث النبي — صلى الله عليه وسلم — بزمان ...

غير أن معرفة الجاهليين للكتابة لم تكن إلا في نطاق ضيق يصح أن يوصف بالندرة ، حتى ذهب بعض المحدثين إلى القول بأن الجزيرة العربية كلها لم يكن بها من الكتاب سوى تسعة عشر ، منهم اثنان أو ثلاثة في مكة . (١)

لكن الشعر الجاهلي لم يدون بأيدي الجاهليين ، وإنما قُيِّد فقط ، وهناك فرق بين التقييد والتدوين :

فالتقييد : لا يعني أكثر من مجرد تسجيل عابر لما يمر ضمن شئون الحياة بما فيها من شعر ، أي دون تنظيم وترتيب وتبويب ودون منهج وأما التدوين : فيقصد به جمع الصحف ، وضم بعضها إلى بعض حتى يكون لنا منها ديوان ، ولابد له من أن يكون عملا مقصودا ، متعمدا ، يرمى إلى هذه الغاية . (٢)

فالتقييد إذًا سابق على التدوين ، وإن لم يكن ذلك في حسبان الجاهليين وبهذا التفريق بين التقييد والتدوين يكاد يزول الخلاف بين من يذهب إلى تدوين الجاهليين لشعرهم ومن يذهب إلى إنكار ذلك .

نعم . لقد كان بعض الشعراء الجاهليين يعرفون الكتابة ، وكان بعضهم يكتب شعره بنفسه ، ومن هؤلاء : لقيط بن يعمر الإيادي ، ولبيد

(١) نقد الشعر الجاهلي / محمد فريد وجدي ص ٦٨

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ١٠٨ (بتصرف كبير وإيجاز) .

ابن ربيعة العامرى الذى أرسل اليه عمر بن الخطاب عن طريق واليه علـى الكوفة " المغيرة بن شعبة " — يطلب منه أن يكتب ما قاله فى الإسلام ... فقال لبيد : إن شئت ما عفى عنه (يعنى فى الجاهلية) . قال : لا ، ما قلت فى الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتـى بها فقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكافأه عمـر — رضى الله عنه — . (١)

وأكثر شعراء الجاهلية لم يكونوا يعرفون الكتابة ، وقد يضطـر أحدهم إلى استكتاب من يعرفها ، كما فعل عمرو بن كلثوم " حين بلغـه أن " النعمان بن المنذر " يتوعده ، فدعا كاتبا من العرب فكتب اليه : (٢)

ألا أبلغ النعمان عنى رسالـــةً ∴ فَمَدْحُك حَوْلِىٌّ وذمُّك قـــارح
متى تلقنى فى تغلب ابنة وائـــل ∴ وأشياعها ترقى إليك المسالـــح

ولما جاء الإسلام ، ونزل القرآن الكريم ، كان كبار الصحابة مثل " عمر بـن الخطاب " و " عبد الله بن عباس " وغيرهما يستعينون بالشعر الجاهلـى فى تفسير ما غمض من ألفاظ القرآن الكريم .

وهذا عمر يقول : (٣)

" عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم " .

---

(١) خزانة الأدب ٢ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، تحقيق هارون .
(٢) الأغانى ١١ / ٥٨ (دار الكتب) .
(٣) تفسير البيضاوى / سورة النحل آية ٤٦

وقال ابن عباس: (١)

" إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ". وظلت كتابة الشعر لا تعدو صورة التقييد " حتى مُصِّرت الأمصار وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه ، وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية " (٢)

بدأ تدوين الشعر في عصر الأمويين .. وكانت هناك أسباب قوية عديدة حثت ودفعت إلى هذا التدوين .

ومن هذه الأسباب : (٣)

١ — العصبية القبلية التي شبت منذ النزاع بين علي ومعاوية ، وقد ساعد الأمويون على إحياء تلك العصبية إلهاءً للناس فحرصت كل قبيلة على جمع ما يمكنها من شعر شعرائها للتفاخر .

٢ — إنشاء الدولة بتنظيماتها المختلفة استلزم اهتمامهم بأنسابهم فرجعوا إلى الشعر القديم الزاخر بها وكأنما كان سجلاً لهم .

٣ — سهولة عملية الكتابة بتوافر أدواتها .

٤ — كثرة الفتوحات الإسلامية واتساع الدولة .

٥ — تشجيع واهتمام الخلفاء والأمراء بالأدب جعل الشعب يهتم به أيضا لأن " الناس على دين ملوكهم " . وقد أفاضت كتب الأدب بذكر مجالس الخلفاء ونوهت بحفظهم لكثير من أشعار الجاهليين .

---

(١) شرح الحماسة / التبريزي ١ / ٣ تحقيق محي الدين عبد الحميد .
(٢) تاريخ الأدب العربي / الجاهلي د / شوقي ضيف ١٥٩
(٣) لبعض هذه الأسباب انظر / في تاريخ الأدب الجاهلي د / علي الجندي ١٤٦ ، ١٤٧ .

ومن هنا نالت هذا الاهتمام الكبير من علماء الأدب واللغة إذ كانت بمثابة المثل الأعلى في الشعر — إن صح التعبير .

ويقال إن أول من جمعها في ديوان هو : حماد الراوية ، وقد سماها "السموط" — جمع سمط وهو العقد — لنفاستها .

وعدد المعلقات على المشهور سبع وأصحابها هم :

امرؤ القيس بن حجر الكندي ، طرفة بن العبد البكري ، زهير ابن أبي سلمى ، لبيد بن ربيعة العامري ، عامر بن كلثوم التغلبي عنترة بن شداد العبسي .. وهؤلاء الستة مجمع عليهم . وأكثر الرواة على أن سابعهم هو "الحارث بن حلزة" ..

والمعلقات عند أبي زيد القرشي ثمان ، وذلك بعد حذف معلقة الحارث بن حلزة ، وإضافة معلقتي النابغة الذبياني والأعشى

أما أبو زكريا التبريزي فقد عدّها سبعاً ، ثم أضاف إليها ثلاثاً للنابغة ومطلعها :

يا دَارَمَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ

أَقْوَتْ وطَالَ عَلَيْها سالِفُ الأَمَدِ

وللأعشى ومَطْلَعُها :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ

وهل تطيق وداعاً أيُّها الرَّجُلُ

ولعبيد بن الأبرص الأسدي ومطلعها :

أقفر من أهله مَلْحُوب ∴ فالقُطَبِيَّاتُ فالذنُوبُ

وبذلك يصير مجموعها عندهم عشر قصائد .

تسميتها :

يطلق على هذه القصائد أكثر من اسم، فيقال لها : السبع الطوال، والمذهبات، والسمط، والمشهورات، والسبعيات، والسبع الجاهليات .

وأشهر أسمائها : المعلقات .. ولهذه التسمية سبب مشهور وهو أنها كتبت بماء الذهب وعلقت في جوف الكعبة، وقد ذهب إلى ذلك : ابن الكلبي، وابن عبد ربه، وابن رشيق، وابن خلدون، والبغدادي .

وأنكر بعض النقاد الكتابة والتعليق معًا، وبعضهم أنكر التعليق كمصطفى صادق الرافعي .

ولكننا نميل إلى الرأي الأول، وذلك لأن الجاهليين كانوا يعلقون العهود والمواثيق المهمة عندهم — بعد كتابتها — في جوف الكعبة ولا يخفى علينا أمر صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش ضد الرسول والمسلمين وقد علقت في جوف الكعبة، فما المانع أن يكتبوا شعرا ويعلقوه !! لاسيما بعد معرفتنا قدر الشعر وقيمته عندهم ..

عرض موجز للمعلقات

١ — معلقة امرئ القيس : (*)

عدد أبياتها ثمانية وسبعون بيتا وقيل اثنان وثمانون بيتا وقيل هي ست وثمانون .

وليس هناك سبب خاص مباشر لإنشاد تلك المعلقة سوى أنه أراد أن يسجل مشاعره وأحاسيسه وذكرياته في شبابه ، وأن يستعرض صفحات من لهوه وعبثه وما إلى ذلك مما تناوله فيها :

وقد بدأها بقوله :

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزل
بسقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمَل [1]

وقد عد النقاد القدماء هذا المطلع من مبتكرات امرئ القيس .. واستغرق الحديث عن ذكرى الحبيبة تسعة أبيات .. وقد عرض بعض ذكريات لهوه وعبثه فكان من ذلك قوله :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ
فقالت لك الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي [2]

(*) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي كان أبوه ملكا ، قتلته بنو اسد ، وكان امرؤ القيس عابثًا لاهيًا حتى قتل أبوه فنذر أن يثأر له ولكنه فشل في ذلك حتى قتل .

(١) الدخول وحومل : موضعان . أما سقط اللوى . فالسقط : منقطع الرمل . اللوى : حيث يلتوي الرمل ويدق .

(٢) عنيزة : اسم امرأة . مُرْجِلي : أي تصير بعيري فتدعني ذا رُجْلَة .

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَعَـــا
عَقَرْتَ بعيرى يا امرأ الْقَيْسِ فانـــزل (١)

فَقُلْتُ لها سِيرِى وأَرْخِى زِمَامَــــه
ولاتُبْعِدِينى من جَنَاكِ المُعَلَّــــل (٢)

فمثلك حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرضِـــع
فألْهَيْتُها عن ذى تمائم مُحْــــول

ثم يتحدث إلى حبيبته فاطمة ، ويصور دلالها وعتابها فى أبيات سنذكرها فى الغزل (ضمن موضوعات الشعر الجاهلى)
ويصف الليل فيستغرق من القصيدة خمسة أبيات قائلا :
وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البحر أرخى سُدُولَــه
علىَّ بأنواع الهموم لِيَبْتَلـــى .. الخ

ثم يصف خروجه مبكرا لرحلة صيد على فرس يصور سرعته ويصفه وصفا بديعا (سيأتى بعد) ويختم المعلقة بوصف السحاب والبرق والمطـر واثاره فى اثنى عشر بيتا .

وكانت هذه المعلقة بما ضمنه من أغراض ، وبما اشتملت عليه من أوصاف المثال الذى احتذاه الشعراء بعده ، وبه صار رئيس الفحول ، ومن أكبر الوصافين أو هو أولهم ، والمقدم عليهم ، وأمير شعرائهم ..

---

(١) الغبيط : الهودج .
(٢) "لاتبعدينى من جناك المعلل" قال الأصمعى : جعلها بمنزلة ما يصيب من رائحة الشجرة وثمرها .

٢ — معلقة طرفة (*)

عدد أبياتها مائة وثمانية أو مائة وخمسة وقيل مائة واثنان . وهـي أطول المعلقات وسبب إنشاده إياها : أنه كان لطرفة ولأخيه "معبـد" إبل يرعيانها يوما ، فأغبّها طرفة في المرعى ، فلامه أخوه على فعلـه وقال : أرأيت إذا ذهبت إبلنا أكنت تردها بشعرك ؟

قال : فإني لا أخرج أبدًا حتى تعلم أن شعري سيردها إن أُخذت! وأخذها ناس من مضر

وقيل : بل إن الإبل التي ضلت هي إبل "معبد" فسأل "طرفـة" ابن عمه "مالكا" أن يعينه في طلبها ، فلامه وقال : فرّطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها ، فقال قصيدته .

غير أننا لانجد هذا السبب على صورة واضحة بين أبيات المعلقـة إلا في قوله :

فمالي أراني وابن عمي مالكـاً
متى أدنُ منه ينْأَ عني ويَبْعُـدِ
يلومُ ، وما أدري عَلاَمَ يَلُومُنـي
كما لامني في الحَيِّ قُـرْط بـن أَعْبَـد

(*) هو طرفة بن العبد البكري بن سفيان البكري ، من بكر بن وائل ، خاله "المتلمس" ، وعمه "المرقش الأصغر" وأخته "الخرنـق" وثلاثتهم شعراء .. وقد ظهرت شاعريته في سن مبكرة ، وكان جريئا على هجاء قومه وغيرهم . وكان مدمن خمر .. قتل وهو ابن عشرين سنه ، ولذلك يقال له "ابن العشرين" ، وكان قتله بإيعاز مـن الملك عمرو بن هند .

وَأَيْأَسَني من كل خَيْرٍ طَلَبْتُـــــــه
كَأَنَّا وَضَعْنَاه إلى رَمْسِ مُلْحَـــــد

على غَيْرِ ذَنْبٍ قُلْتُـــه غير أنَّنـــــي
نشدت فلم أغفل حَمُولة مَعْبَـــد

وهناك بعض الأبيات يختلط فيها العتاب بالفخر، والهجـاء بالتهديد، ولا يختص بالإبل التي ضيّعها، وطلب العون على ردها .

ونستنتج من ذلك : أن هذه القصيدة لم يصنعها طرفة في وقت واحد، وإنما صنعها على مراحل، استكمل لها خلال تلك المدة الخصائص الفنية في روية وتؤدة حتى صارت من عيون الشعر الجاهلي

وقد بدأ طرفة معلقته بذكر الأطلال قائلا :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَـــــدِ
تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظَاهِرِ اليَـــدِ(1)

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي علـــيَّ مَطِيَّهُـــمُ
يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّـــدِ

ثم انتقل بعد ذلك مباشرة إلى وصف مركب ارتحال حبيبته مشبهـا إياه بالسفينة التي كان يراها كثيرا في موطنه بالبحرين على الخليج الفارسي :

---

(1) أطلال : جمع طل وهو ما شخص من آثار الدار . برقة : مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى . ثهمد : موضع .

كأنَّ حُدُوجَ المَالِكِيَّــــةِ غُــــدْوَةً
خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِــــنْ دَدِ (١)

وذلك في ثلاثة أبيات · ثم أخذ في وصف الحبيبة (كما سيأتى في موضوعات الشعر) وذلك في خمسة أبيات — وهذا بخلاف "امـــرئ القيس" الذى احتلت المرأة في معلقته مساحة كبيرة ولعل ذلك راجــع إلى أن "طرفة" لم يتعلق بهواها إلى درجة يطغى معها ذكرها على بقية موضوعات المعلقة ·

ثم أخذ يصف الناقة وصفا عظيما ، إذ تتبعها جزئية جزئية ، من رأسها إلى أرجلها ، فاستأهل — بذلك الوصف البارع — أن يكون إماما كما كان "امرؤ القيس" إماماً في وصف فرسه ·

يقول طرفة :

وإنِّي لَأُمْضِي الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَــــارِهِ
بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَــــدِى (٢)

---

(١) الحدوج : القباب أو هي مراكب النساء واحدها : حِدْج · المالكية من بنى مالك بن ضُبَيْعة يقصد "خولة" . خلايا سفين : سفــــن عظيمة · النواصف : جمع ناصفة وهى مجارى الماء إلى البحر : دد دد : أرض معروفة ·

(٢) الهم : النية والعزم · احتضاره : حضوره · عوجاء : ناقة تعوج في سيرها مرحا ونشاطا · إرقال : المسرعة · تروح وتغتــــدى لا يهمها التبكير أو التأخير ·

أَمُونٍ كألواحِ الإِرَانِ نَسَأْتُها
على لاَحِبٍ كأنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ (١)

إلى أن يقول :

على مثلِها أَمْضي إِذَا قَالَ صَاحبي
أَلاَ لَيْتَني أَفْدِيكَ منها وأَفْتَدِي

واستغرق وصف الناقة منه ثلاثة وثلاثين بيتا ، انتقل بعدها إلى الفخر بنفسه ، وهو أكبر الموضوعات حجما في القصيدة إذ ذكر أخلاقه وشمائله ، وبلاءه حين البأس ، وعراقة الأصل ، ووصف مجالس الشراب .. ثم ذكر أمانيه في الحياة ، تلك الحياة التي لايهتم بها ولا يحرص عليها ...

ومن الأبيات التي استجادها النقاد قوله :

إذا القَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّني
عُنِيتُ فلم أَكْسَلْ ولم أَتَبَلَّدِ

ومن الأبيات التي تعد حكما عظيمة قوله عن الموت :

---

(١) الأمون : الناقة الموثقة الخلق . الإران : تابوت كانوا يجعلون فيه سادتهم وكبراءهم فقط . نَسَأْتُها : حملتها على السير في هذه الطريق . اللاحب : الطريق الذي فيه تعرجات . بُرْجُد : كساء من أكسية الأعراب .

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي
عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ (١)
أَرَى العَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كلَّ لَيْلَةٍ
وما تَنْقُصِ الأَيام والدَّهْرُ ينفدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ ما أَخْطَأَ الفَتَى
لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى و ثِنْيَاه في اليَدِ (٢)
متى ما يَشَأْ يومًا يَقُدْه لحَتْفِه
ومن يَكُ في حَبْلِ المَنِيَّةِ يَنْقَدِ

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ابن عمه "مالك" وكيف كان قاسيًا هو وقومه مع شاعرنا ، ويأسف أشدّ الأسف لأن تكون تلك أخلاق قومه الذين ظلموه فيقول :

وظُلْمُ ذَوِى القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
على المرء من وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

وكان ذلك داعيا للتحدث عن نفسه مرة ثانية ، ونعت نفسه نعوتا تسلكه في مصاف العظماء الأشراف الذين يستحقون التكريم والثناء من أقوامهم .

ويختم "طرفة" معلقته بأبيات من الحِكَم العظيمة التى تنم عن تجاربه ومشاهداته في الحياة فيقول :

---

(١) يعتام : يختار . عقيلة كل شيء : خيرته وأحسنه . المتشدد : البخيل الممسك .

(٢) أى إن الموت في حالة إخطائه الفتى كالطول أى كالحَبْل المرخى وهو بيد الإنسان يجذبه وقتما يشاء .

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جَاهِــــلاً
ويأتيكَ بالأَخْبار من لم تُــــزَوِّد

ويأتيك بالأَخْبار من لم تَبِــعْ لــــه
بَتاتًا ولم تَضْرِبْ له وَقْتَ مَوْعِـــد

لَعَمْرُك ما الأَيَّام إلا مُعَـــــارة
فما اسْتَطعْتَ من معروفها فَتَــزَوَّد

عن المَرْءِ لا تَسْأَلْ وأَبْصِرْ قَرِينَــــه
فإن القَرِينَ بالمُقَارِنِ مُقْتَـــد

هذه هي معلقة طرفة . وإذا كان الدكتور طه حسين قد شك فـــي معلقة امرىء القيس فإنه لا يكاد يشك هنا إلا فيما وصف فيه طرفة الناقـــة ويرى أن اكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغـــة منه إلى شيء آخر ه ولا دليل عنده على ذلك سوى صعوبة الألفاظ ..

غير أن الناظر في المعلقة — مع اختلاف طبيعة الألفاظ في وصف الناقة عن سائر الأغراض — لا يجد اختلافا كبيرا .. (١)

ثم إن الالفاظ التي تستعمل في الغزل لا يتأتى أن تستعمل فـــي وصف الناقة أو الفرس مثلا . فلغة الغزل غير لغة الوصف ، والرثاء غيـــر الحماسة ..

---

(١) راجع / معلقات العرب د / بدوي طبانة ص ١٢٣ .

٣ — معلقة عنترة :

ستأتى ترجمته ، وعرض لأبيات من المعلقة ، وتحليل لها ، فى قسم التراجم ..

٤ — معلقة زهير بن أبى سلمى (١)

عدد أبياتها : تسعة وخمسون بيتا ، وقيل هى ستون ، وقيل أربع وستون .

سبب إنشادها : كانت الحرب مشتعلة بين قبيلتين عربيتين هما عبس وذبيان ، وقتل من الفريقين عدد كبير ، فقام "هرم بن سنان" و"الحارث بن عوف" ساعيين بالصلح بين القبيلتين متحمّلين ديات القتلى، وتحركت شاعرية "زهير" تشيد بالرجلين ، وتمدح فعلهما .

وقد بدأ "زهير" معلقته بالوقوف على الأطلال بعد عشرين عاما من ذكريات له قضاها فى تلك الأماكن :

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى (ربيعة) بن رياح بن قرط ... من مزينة وقيل من غطفان ، نشأ فى بيت شعر فكان "بشامة بن الغدير" خال أبيه شاعرا ، وأبوه "ابو سلمى" شاعر ، وزوج أمه "أوس بن حجر" شاعر ، واخته "سلمى" شاعرة ، وابناه "كعب وبُجَير" شاعران . وزهير هو أحد الشعراء الثلاثة المقدّمين فى الجاهلية وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير .

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ
بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ (١)

دِيارٌ لها بالرَّقْمَتَيْنِ كأنَّها
مَراجِيعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ (٢)

بِها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً
وأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ (٣)

وقفت بها من بعد عشرين حِجَّةً
فَلأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ (٤)

إلخ ..

ثم تذكر ساعة الفراق ، وصور الركب واصفا الرحلة ، بدايتها ونهايتها ..

---

(١) أم أوفى : زوجته ، وكان قد طلّقها ثم ندم وأراد أن يردها فأبت فبكاها . الدمنة : آثار الدار . حومانة الدارج ، والمتثلم : موضعان

(٢) الرقمتان : إحداهما قرب البصرة والأخرى قرب المدينة . مراجيع وشم : أي آثار وشم . النواشر : عصب الذراع من ظاهرها وباطنها . المعصم : موضع السوار .

(٣) العِين : البقر ، واحدها أعين وعيناء . الآرام : الظباء الخالصة البياض ، واحدها رئم . أطلاؤها : أي أبناؤها واحدها : طلا مجثم : الموضع الذى ترقد فيه وتبيت .

(٤) لأيا : جَهْدا وتعبا وشدة .

ثم وصل إلى الغرض الأصلي في القصيدة فمدح الساعيين بالسلام (كما سيأتي بعد) .

ووجّه الخطاب إلى الأحلاف المتحاربين ولا سيما أسد وغطفان وطيء ينذرهم أن يحنثوا فيما تعاهدوا مع القوم عليه ، ويحذّرهم من أن يكونوا مبطنين خلاف ما أظهروا ، وعرّج بحديثه إلى الحرب فذكر مساوئها وويلاتها ، وشبّهها بالسباع الضارية تارة ، وبالرّحى تعرك ثِفالها تارة أخرى :

وما الْحَرْبُ إلا ما عَلِمْتُم وذُقتم
وما هو عنها بالحَديث الْمُرَجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذَمِيمَةً
وَتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَم
فَتَعْرُكُكُم عَرْكَ الرَّحى بِثِفَالِها
وَتلْقَحْ كِشَافًا ثم تنتجْ فَتُتْئِم (١)

إلخ ..

ثم وصل إلى طائفة من الحكم ساقها في تلك المعلقة وسوف نعرض لها في غرض "الحكمة"

ومن خصائص هذه المعلقة :

١ ـ تصوير الحرب في صورة مخيفة قبيحة .

٢ ـ كثرة الحكم .

---

(١) الثفال : جلدة أو خرقة توضع تحت الرحى ليكون ما سقط من الطحين في الثفال .

٣ ـ قوة الأسلوب .

٤ ـ القصيدة كلها على نمط واحد من القوة فى الأبيات ومتانة التراكيب، وهذا طبع زهير صاحب الحوليات ..

٥ ـ ويتميز شعره كله بالصدق وعدم المبالغة ولذلك قال عمر بن الخطاب عنه :

"كان لايمدح الرجل إلا بما يكون فيه" .

٦ ـ وهناك صلة قوية بين معلقتى زهير وعنترة، فكلتاهما فى حروب داحس والغبراء .. قال عنترة قصيدته قبل انتهاء الحرب، أما زهير فقد قالها بعد انتهائها، والموضوعات التى اشتملت عليها كل معلقة تختلف عن الأخرى كما هو واضح، فرغم أن الموضوع واحد إلا أن شعر الحرب (عند عنترة) يختلف تماما عن شعر السلم ومدح القائمين به الساعيين فيه "عند زهير" .

٥ ـ معلقة عمرو بن كلثوم(*) وهى قصيدة مرتجلة

عدد أبياتها ستة وتسعون بيتا، ورواها ابن الأنبارى أربعة وتسعين .

وقيل هى مائة وأربعة .. ويقال إنها كانت تزيد عن ألف بيت وهذا جزء منها ..

---

(١) عمرو بن كلثوم من قبيلة تغلب، ومن بيت السيادة فيها . ساد قبيلته فى الخامسة عشرة وذلك بحسن بلائه وشجاعته وفصاحته، وعُمِّر طويلا، وكانت وفاته سنة ٦٠٠ تقريبا .

سبب إنشادها :

يقول ابن قتيبة[1] : "كان سبب ذلك أن "عمرو بن هند" قال ذات يوم لنُدَمائه : هل تعلمون أن أحدًا من العرب تأنَفُ أمه من خدمة أمي ؟ فقالوا : نعم، عمرو بن كلثوم، قال : ولم ذلك؟

قالوا : لأن أباها مُهَلْهِل بن ربيعة، وعمها كُلَيب وائل أعز العرب وبَعْلُها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منه .

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزيرَ أمَّه أمه، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب .... وأرسل الملك إلى وجوه مملكته فحضروا، ودخل الضيوف، ودخلت ليلى بنت مهلهل على هند في جانب الرّواق، وكانت قد صرفت الخدم .. ونصبت المائدة .. فقالت هند :

يا ليلى، ناوليني الطبق ! فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الطلب وألحّت، فصاحت ليلى : واذلاه ! يا لتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، ونظر إلى وجه عمرو بن هند فعرف الشر فيه، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق فأخذه وضرب به رأس "عمرو بن هند" حتى قتله، ونهبت تغلب كل ما في الرواق وساروا إلى الجزيرة .

---

(1) الشعر والشعراء ٢٣٤، ٢٣٥ .

وقد بدأها عمرو بن كلثوم قائلا :

ألا هُبِّي بِصَحْنِك فاصْبَحِينَـــا
ولا تُبقي خُمُـور الأنْدَرِينَــا

وهي مقدمة خاصة لم تُعْهد عند غيره من الشعراء ، وإنما المعهود في أشعار الجاهلية أن يفتتحوا القصيدة بالوقوف على الأطلال ، مما دعا بعضهم إلى التشكيك في هذه الافتتاحية ، وإلى القول بأن مقدمة القصيدة قد ضاع .

وقد تناول عمرو حديث الخمر في خمسة أبيات ، ثم ذكر محبوبته وَوَجْده عليها ، ثم انتقل إلى الغرض الأصلي في القصيدة وهو الفخر القبلي فيقول :—

ألا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَـــا
فَنَجْهَلَ فوق جَهْل الجاهلينَـــا

بأيِّ مَشيئةٍ عَمْرو بن هنـــد
تكون لِقَيْلكُمُ فيها قطينَـــا (١)

بأيِّ مشيئةٍ عَمْرو بن هنـــد
تُطِيعُ بنا الوشاةَ وتَزْدرينَـــا

إلى أن يقول :

وقد علم القبائل من مَعَـــدٍّ
إذا قُبَبٌ بأبْطَحِها بنينَـــا (٢)

---

(١) القَيْل : الملك ، وذلك لأنه إذا قال أطيع . القطين : الخدم والتُّبَّاع .

(٢) قبب : جمع قبة . تضرب بالأبطح وهو ما اتسع من بطون الأودية — للمفاخرات .

وأنّا المُطعمون إذا قدرنـــا
وأنّا المُهلكون إذا ابْتلينَــا

وأنّا المانعون لما أردنـــا
وأنّا النازلون بحيث شِينَــا

وأنّا التاركون إذا سَخِطْنـا
وأنا الآخذون إذا رَضِينَــا

إلى أن يختم بقوله :

إذا بلغ الفطامَ لنا صَبِـيٌّ
تخرُّ له الجَبابِرُ ساجدينــا

ويلاحظ على هذه المعلقة :

* المبالغة في الفخر والغلو فيه ولا سيما البيت الأخير ففيه مبالغة غير مقبولة .

* في ألفاظها رقة وسهولة ، تميزت بها عن سائر المعلقات ، وهذا راجع إلى طبيعة الشاعر أولا ، ثم بيئته إذ كان يعيش قريبا من الحواضر .

* المعاني لا غموض فيها ولا التواء .

* الشاعر لا يفخر بنفسه، وإنما يعتز بقبيلته ويفخر بها ، ولذلك كثر استعمال ضمير الجمع (أنّا ..) .

٦ — معلقة الحارث بن حلزة (*)

(*) الحارث بن حلزة من بني يشكر ، من بكر بن وائل . قال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم الحارث بن حلزة ، وطرفة بن العبد وكان سيدًا من سادات قومه مات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة .

عدد أبياتها : خمسة وثمانون بيتاً . ورواها ابن الأنباري أربعاً وثمانين . وهي مرتجلة .

وسبب إنشادها : أن دماء كانت بين بكر وتغلب، اختلفوا عليها وترافعوا فيها إلى عمرو بن هند ليحكم بينهم، وعلم الحارث أن ضلع الملك على رهطه من بكر مع تغلب، فوقف — وكان به برص — فألقى الملك بينه وبينه ستراً، ثم جعل يحجبه قوله حتى رفع الستر عنه وأدناه فأجلسه معه وحكم لبكر على تغلب .

وقد بدأها الحارث يذكر المرأة فشبب بأسماء التي آذنته بفراقها ..

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ∴ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ (١)

وذلك في تسعة أبيات، ثم انتقل يصف ناقته قائلاً :

غير أني قد أستعينُ على الهم ∴ إذا خَفَّ بالثَّوِيِّ النجاءُ(٢)

ثم أخذ يذكر تجني قبيلة تغلب على قومه بني بكر، واستعدادهم لحربهم، ويوجه حديثه إلى عمرو بن كلثوم سيد تغلب قائلاً :

أيُّها الناطق المرقِّش عنا ∴ عند عمرو، وهل لذاك بقاء(٣)

لاتخلنا على غراتك إنا ∴ قَبْلُ ما قد وشى بنا الأعداء(٤)

فَبَقِينَا على الشَّنَاءَةِ تنمينا ∴ حُصُونٌ وعزة قعساء

(١) البين : الفراق . الثاوي : المقيم .
(٢) الثوي : المقيم . النّجاء : الاسراع .
(٣) المرقش : المزين المزخرف يقصد عمرو بن كلثوم .
(٤) أي لاتظن أننا خضعنا .

ويبين له أن بني بكر لا يعبأون بهذه الوشايات الحقيرة ، فهم كالجبال الرواسي لا تنال منها الرياح — ويأخذ في الفخر بقومه وما لهم من المنعة والمآثر والأمجاد .

ويصل إلى مدح الملك عمرو بن هند ويذكره بأيامهم ومكارمهم ومن هنا فخر بقبيلته واستغرق هذا الفخر ستة عشر بيتا .

موازنة بين معلقتي الحارث وعمرو بن كلثوم

* تُعد هذه المعلقة سجلاًّ لكثير من الأحداث السياسية والتاريخية ففيها حديث عن الحرب بين بكر وتغلب ، وما كان من صلح ، وعهود وأيام انتصرت فيها تغلب ، وأخرى كانت الغلبة فيها لبكر ... إلخ .

* كان الحارث بن حلزة مُقْنِعًا للملك واستطاع أن يستميله وأن يضمه إلى صفوف قبيلته ، هذا على الرغم من إشادته بقومه وفخره بهم ، بخلاف عمرو فقد كان ثائرا مغضبا للملك .

* وتبدو في معلقة الحارث امارات القوة ، في جزالة الألفاظ ، ومتانة التراكيب ، بخلاف معلقة عمرو بن كلثوم — كما أسلفنا — فيغلب عليها السهولة .

* تحققت في المعلقة الوحدة المعنوية ، بخلاف معلقة عمرو فالتفكك واضح فيها ، والتكرار كذلك .

* معلقة عمرو أطول من معلقة الحارث .

* مطلع الحارث تقليدي ، ومطلع عمرو ليس كذلك وإنما خرج به على النمط التقليدي عند الجاهليين .

٧ — معلقة لبيد بن ربيعة العامري (*)

وهو أحدث أصحاب المعلقات السبع ..

عدد أبياتها : تسعة وثمانون ، ورواها ابن الأنباري ثمانية وثمانين (١)

ولم يذكر الرواة لهذه المعلقة سببا .

وقد بدأ لبيد معلقته بالحديث عن الديار قائلا :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحلها فمقامُهـــا
بمنًى تأبَّدَ غَوْلُها فرجامُهـــا (٢)

ثم وصف الطبيعة والرعد والمطر والسحاب إلى أن يتحدث عن "نوار" تلك التي يئس من لقائها لبعد منازلها .

وينتقل بعدها إلى الناقة فيصفها ويشبهها بالأتان الوحشية مرّة ، وأخرى بالبقرة المذعورة ، ثم يفخر بنفسه ويصف شجاعته قائلا :

أو لم تكن تدْري نوارُ بأنّنـــي
وصّالُ عَقْدِ حبائلٍ جَذّامُهـــا (٣)

(*) هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ... من هوازن ، أحد الشعراء الفرسان ، عُمِّرَ حتى أدرك الاسلام ، ومات سنة ٤٠هـ .

(١) راجع/ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٥٠٥ .

(٢) عَفَت : درست . المحل : مكان الإقامة القصيرة . المقام : مكان الإقامة الطويلة . منًى : موضع . تأبّد : توحّش . الغول : ماء معروف وقيل جبل . الرِّجام : جبال . أو هو جبل .

(٣) الحبائل : جمع حبالة وهي مستعارة للعهد . الجَذّام — صيغة مبالغة من الجذم وهو القطع .

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إذا لم أَرْضَهـــا
أَو يَرْتَبِطْ بعض النفوس حمامهـــا (١)

وذكر كثيرا من فضائله ومكرماته .. وينهى المعلقة بالفخر القبلى الذى استغرق منه أربعة عشر بيتا يقول فى آخرها :

وإذا الأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فى مَعْشَــر
أَوْفَى بِأَعْظَم حَظِّنا قَسَّامُهـــا
فَهُمُ السُّعَاةُ إذا العَشِيرَةُ أُفْظِعَـتْ
وهُمُ فَوارِسُها وهم حُكَّامُهـــا (٢)
وهُمْ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فيهـــمُ
والمُرْمِلاتِ إذا تَطَاوَل عَامُهـــا (٣)
وهُمُ العشيرة أن يُبَطِّئَ حَاسِـــدٌ
أو أن يلومَ مع العِدا لُوَّامُهـــا (٤)

ويلاحظ على هذه المعلقة :

* أنها تتميز بقوة النسج ، وبداوة الألفاظ وغرابتها حتى إنك لا تكاد تعثر فيها على بيت واحد تفهمه دون الرجوع إلى معاجم اللغة .

---

(١) الحِمام : الموت .
(٢) أُفْظِعَتْ : أى وقعت بها مصيبة عظيمة .
(٣) المرملات : اللواتى لا أزواد لهن .
(٤) أى هم العشيرة التى لا يقدر حاسد أن يبطئ الناس عنهم بسوء قول فيهم ، ولا يقدر لائم على لومهم لأنهم كرماء .

* ومن هنا تُعَدّ وثيقةً تاريخية تدل على صدق الأدب الجاهلي ٠
* غّنى لبيد بوصف آثار الديار وأطال الوصف ونوّع في التشبيه ٠
* تحدث عن المرأة إلا أنه لم يتهالك، وذكر أنه يائس من لقائهـا بل إنه أمر نفسه بقطع حبلها بعد تعذر وصالها ٠
* وإذا كان طرفة قد وصف الناقة في معلقته ناعتا لكل أجزائهـا فإن لبيد قد تناول سرعتها فحسب ٠

٢ — المجموعة الثانية : المفضليات : نسبة إلى جامعها وهو "المفضل الضبي" المتوفى بين (١٦٤هـ و ١٧٠هـ) ٠

وهي مائة وست وعشرون قصيدة ، أضيف إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ ، وهذه القصائد موزعة على سبعة وستين شاعرا ، منهـم سبعة وأربعون جاهليا ، وبينهم المرقّشان الأكبر والأصغر والحارث بـن حلّزة وعلقمة بن عبدة وغيرهم (١)

يقول الدكتور شوقي ضيف :

"ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة الموثّقة لأمكـن وصف تقاليده وصفا دقيقا ، فقد مثّلت جوانب الحياة الجاهلية ، ودارت مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية ٠

وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التي لم ترد فـي المعاجم اللغوية ..." (٢)

(١) تاريخ الأدب العرب/ كارل بروكمان ١/ ٦٧، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف ١٧٧ ٠
(٢) العصر الجاهلي ص ١٧٧، ١٧٨ ٠

وقد لقيت المفضليات اهتماما كبيرا من العلماء والأدباء والباحثين في شتى العصور فطبعت أكثر من طبعة بشرح، وبدون شرح [1] .

٣ — المجموعة الثالثة . الأصمعيات . نسبة إلى جامعها وهو الأصمعي الأديب اللغوي المتوفى فيما بين (٢١٢هـ — ٢١٧هـ)

وتشتمل على اثنتين وتسعين قصيدة ومقطوعة لواحد وسبعين شاعرا منهم الجاهلي والإسلامي والمخضرم . وقد لوحظ أنه ميز "خفاف بن ندبة" من بني سليم بأن اختار له أربع أصمعيات متفردًا بذلك بين سائر الشعراء .

وهناك التقاء بين الأصمعيات والمفضليات في تسع عشرة قصيدة ، مما جعل بعض الباحثين يقول إن مجموعة المفضليات ليست كلها من اختيار المفضل الضبي ، وإنما اشترك معه الأصمعي ..

ويغلب على كثير من الأصمعيات قِصَر القطع المختارة ، وربما كان الأصمعي يبغي من وراء اختياره "وجهة لغوية" ، فقي الأصمعيات يتجلى مزاج الأصمعي الذي يرجح في نظره الناحية اللغوية والنحوية في كل أثر شعري ، على الناحية الأدبية .

ولعل هذا السبب فيما يقال عن الأصمعيات من أنها لم تلق ما لقيته المفضليات من الانتشار والقبول [2]

---

(١) في الأدب الجاهلي د / علي الجندي ص ١٦٠ .

(٢) راجع / المراجع المذكورة سابقا ، وتاريخ الأدب العربي بلاشير ص ١٥٩ .

٤ — المجموعة الرابعة : جمهرة أشعار العرب المنسوبة الى "أبى زيد بن محمد بن الخطاب القرشى" والذى يُظن أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع .

وتضم هذه المجموعة المسماة بـ"جمهرة أشعار العرب" تسعا وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام، فى كل قسم سبع قصائد .

وهذه الأقسام تحمل العناوين التالية :

المعلقات، المجمهرات، المنتقيات، المذهبات، المراثى، المشوبات، الملحمات .

والقسم الأخير يشتمل على قصائد لشعراء أمويين، وتغلب فى الأقسام الأخرى قصائد الشعراء الجاهليين، وشعراء الأنصار، وشعراء مخضرمين .. (١)

٥ — مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢هـ

وقد جمعها هبة الله بن على بن محمد بن حمزة المعروف بالشجرى نسبة إلى "شجرة" وهى من أعمال المدينة المنورة، أو إلى بيت الشجرى من قبل أمه لأنه كان فى بيته شجرة، وليس فى البلد غيرها (٢)

وقد اشتملت على ستين قصيدة ومقطوعة، جعلها ابن الشجرى ثلاثة أقسام، القسمان الأولان يشتملان على سبع وثلاثين قصيدة لشعراء جاهليين، والقسم الثالث خاص بشعر الحطيئة وأخباره .

---

(١) راجع / تاريخ الأدب العربى / بروكلمان ١ / ٧٥ .

(٢) مختارات شعراء العرب لابن الشجرى / تحقيق د / نعمان أمين طه ص ٧ .

وقد حققها وشرحها الدكتور / نعمان أمين طه وطبعت بالقاهرة سنة ١٩٧٩م ٠

٦ — دواوين الحماسة

وهي عدة حماسات، منها :

١ — حماسة أبي تمام الشاعر المعروف المتوفى سنة ٢٣١هـ وقد طبعت عدة طبعات وشرحها التبريزي، كما شرحها المرزوقي ٠

٢ — حماسة البحتري الشاعر المعروف المتوفى ٢٨٤هـ، وهي قطع قصيرة قد تصل إلى بيت واحد (١)

٣ — حماسة الخالديين للأخوين أبي عثمان وأبي بكر الخالديين ت ٣٥٠، ٣٨٠هـ ٠

٤ — حماسة ابن الشجري لابن الشجري صاحب المختارات السابقة ٠

٥ — الحماسة البصرية ٠ لصدر الدين علي بن الفرج البصري (القرن الخامس الهجري) وقد حققت بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحقيقا جيدا ٠

دواوين القبائل :

واهتم العلماء بجمع شعر القبائل في دواوين، إلا أنه لم يصلنا منها سوى (شعر الهذليين)، وقد ذكر الآمدي في كتابه المؤتلف والمختلف عددا من هذه الدواوين، حينًا يسميها "أشعار بني فلان"، وآخر يسميها "كتاب ٠٠"

---

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي / علي الجندي، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف ٠

فيقول مثلا عن الحجاف بن حكيم : "وله فى كتاب بنى سليم أشعار حسان" (١)

دواوين الافراد :

ومن أهم وأشهر هذه الدواوين :

ديوان امرئ القيس ، وديوان النابغة ، وديوان طرفة ، وديوان عنترة ، وديوان لبيد ، وديوان الخنساء وغيرها كثير وقد حقق معظم الدواوين التى عثر عليها مخطوطة أو جُمعت فيما بعد من خلال المصادر الأصلية الموثقة .

وهناك كتب أخرى تضم شعرا كثيرا للجاهليين ومن هذه الكتب الأغانى للأصفهانى ، النقائض لأبى عبيدة ، العقد الفريد لابن عبد ربه طبقات الشعراء لابن سلام ، الشعر والشعراء لابن قتيبه ..الخ .

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ص ١٠٣ .

الفصل الثالث :
نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي

نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي (١)

قال صاحب القاموس : (٢)

انتحله وتنحله : ادعاه لنفسه وهو لغيره · ونحله القول — كمنعه — : نسبه إليه ·

وعلى ذلك :

فالانتحال : "ادعاء الشيء للنفس وهو في الواقع للغير . والنحل : النسبة إلى الغير ·

أولا : الانتحال ووضع الشعر عند القدماء ·

أ) في الجاهلية :

لم يكن الانتحال موجودا عند الجاهليين إذ " لم يكن من سبب في جاهلية العرب يبعثهم على وضع الشعر ونحلته غير قائله وإرساله في الرواية على هذا الوجه ، لأن شعراءهم متوافرون ، ولأنهم لا يطلبون بالشعر إلا المحامد والمعاير ، وقصارى ما يكون من ذلك أن يتزيد شاعرهم في المعنى ويكذب فيه إذا حاول غرضا أو أراغ معنى مما تلك سبيله ···· وهذا التزيد هو الذي يسميه الرواة " أكاذيب الشعراء " أما أن يكون في عرب الجاهلية من يصنع الشعر وينحله غيره على نحو ما كان في الإسلام

---

(١) رجعنا في هذا الفصل إلى : طبقات الشعراء لابن سلام ، وتاريخ آداب العرب للرافعي ، د / ناصر الدين الأسد ، والعصر الجاهلي د / شوقي ضيف ، في الشعر الجاهلي د / علي الجندي ، ونظرية الانتحال د / المسلوت ، ومن الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي د / سعد ظلام ، في الأدب الجاهلي طه حسين ·

(٢) القاموس : نحل ·

فذلك ما لا نعلمه ولا نظنه كان ألبتة " (١)

ب) في الإسلام :

وقد بدأ النحل والوضع في الإسلام ، إذ انشغل المسلمون بالفتوحات عن الشعر حيناً من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد ذهب أكثره بذهاب رواته صنعت القبائل الأشعار ، يقول ابن سلام في ذلك(٢) :

" فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كان الرواة بعد فزادوا في الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون .

وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال " .

وأول القبائل التي فعلت ذلك " قريش " فقد وضعت شعرا على ألسنة شعرائها ، ولا سيما " حسان بن ثابت " .

ابن سلام الجمحي وقضية الانتحال

يعد محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١هـ من أوائل من تعرضوا لهذه القضية ، وعرضها في كتابه " طبقات الشعراء " في عدة مواطن

(١) تاريخ آداب العرب ١/٣٦٥ للرافعي

(٢) طبقات ابن سلام

فقد نظر في الشعر الوارد على لسان ابن اسحاق في سيرة ابن هشام فكان قوله : (١)

" وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن اسحاق بن يسار ، وكان من علماء الناس بالسير ، فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول :

لا علم لي بالشعر ، أُوتى به فأحمله .

ولم يكن ذلك عذرا ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال . ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة وليس بشعر ، إنما هو كلام معقود بقواف أفلا يرجع إلى نفسه فيقول :

من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين والله يقول : " وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى " ويقول " وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِم لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ " ؟ "

ويرى ابن سلام أن الشعر الجاهلي قد ضاع منه الكثير ، وزيد عليه وضعا وانتحالا ، وقد ورد ضياع الشعر ونقصه إلى انشغال العرب بالفتوحات — كما سبق — .

وأما الزيادة فقد ردها إلى عوامل :

١ — الشعر الذى أدخل على العلماء غفلة منهم ، أو جهلا بوضعه وانتحاله ، كذلك الشعر الذى يرويه محمد بن اسحاق

---

(١) الطبقات ٨

منسوبا إلى عاد وثمود وغيرهم .

٢ — اختلاط الأمر على بعض الرواة ، فربما رووا شعرا للشاعر وهو ليس له ، وقد مثل ابن سلام لذلك بأمثلة منها بيت النابغة المشهور :

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أيّ الرجال المهذّب

فبنو سعد بن زيد مناه يدّعونه لرجال منهم .

٣ — محاولة بعض العشائر الاستكثار والتزيد من الأشعار حتى يضيفوا إلى أمجادهم ومفاخرهم شرفا ، وقد ذكرنا كلامه في ذلك .

٤ — كذب الرواة وتخليطهم رغبة في الكسب ، وطمعا في المال إذ كان الرواة يحظون من العطاء والنوال بما لم يحظ به الشعراء .

ولكن ابن سلام ينبه بعد ذلك على أن الوضع لم يكن بهذه الكثرة ولم يفت العلماء النقاد ذوى الخبرة أن يتتبعوا هذه الأشعار ، ويكشفوا صحيحها من زائفها ، ويضعوا أيديهم على المنحول والموثوق . يقول :

" وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون وانما عضد بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال " .

وبذلك يمكن القول :

١ — أن ابن سلام هو أول من تحدث عن هذه النظرية باستفاضة فكانت أصلا تنبه إليه المحدثون من المستشرقين والعرب فتزيدوا في القضية وحمّلوا النصوص أكثر مما تحتمل .

٢ — أن هناك شعرا جاهليا موثوق به ، وهناك المنتحل الذى عرفه العلماء الثقات فنبهوا عليه .

٣ — ليس كل الرواة كذابين ، متبعين هوى العصبية يميلون معها حيث مالت كلا فهذا مثلا : " حماد الراوية " كان من موالى بكر بن وائل ولكن انتسابه في بنى بكر لم يمنعه من رواية مطولة " عمرو بن كلثوم " مع أن فيها تمجيدا لتغلب، ألد أعداء بنى بكر في الجاهلية ، فحفظها " حماد " ورواها على ما فيها من مساس بكرامة مواليه من بنى بكر .

نظرية الانتحال عند المحدثين

تلقف المستشرقون خيوط القضية ، فنفخوا فيها من سمومهم ، وكتبوا فيها بنفوس حاقدة موتورة ، وبذلك خلقوا حولها ظلالا من الشكوك وخطوطا من الخرافات والأكاذيب يمكن أن تروج الباطل ويستند إليها الواهمون (١)

وكان من أوائل المستشرقين الذين كتبوا في هذه القضية " نولدكه " سنة ١٨٦٤م ، وتلاه " آلورد " الذي نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، فشك في الشعر الجاهلي كله ، وانتهى إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، إلا أن الشك ينتابها من ناحية أخرى وهي ترتيب الأبيات ، وألفاظ القصيدة .

وقد تابع " آلورد " في هذا التشكيك عدد من المستشرقين .

مرجليوث

وكان أكبر المستشرقين الذين أثاروا القضية هو " مرجليوث " الذي كتب مقالا في مجلة الجمعية الآسيوية سنة ١٩٢٥م وجعل عنوانه " أصول الشعر العربي " وتتلخص آراؤه في نقاط :

١ — الشعر إما أن يصل عن طريق الرواية أو التدوين (أ) ثم يستبعد طريق الرواية لأن الناس لا يمكن أن يحفظوا قصائد طوالا ، يتناقلونها عن طريق المشافهة ، اللهم إلا إذا كانت هناك حرفة مثل هذه احترفتها طائفة من الناس ، وهو ما لم يكن موجودا (ب) وحتى لو كان هناك رواة حافظون للشعر الجاهلي فإنه لزم عليهم أن ينسوا هذا الشعر بسبب موقف القرآن الكريم من الشعر وازدرائه للشعراء .

(جـ) ثم إنه لو كان هناك شعر جاهلي فلابد أن تكون أهم موضوعاته

---

(١) راجع : نظرية الانتحال للمساوت ص ٧٠ (بتصرف)

المفاخرات التي تبرز فيها العصبية القبلية ، والقرآن الكريم دعا إلى الوحدة ونبذ تلك العصبية فكان على المسلمين حينئذ نسيان هذا الشعر إذعانا لأوامر الإسلام .

وبذلك يكون قد نفى وصول الشعر عن طريق الرواية .

إلا أن مستشرقا آخر " ليال " رد عليه في مقدمته لديوان " عبيد بن الأبرص " ، مؤكدا أن رواية الشعر الجاهلي لم تنقطع ، بل استمرت حية نشطة من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي ، وهو عصر التدوين .

وهو بالطبع يستبعد معرفة العرب للكتابة مستدلا بآيات من القرآن الكريم ، ولكنه استدلال في غير موضعه .. (راجع ما كتبناه عن الكتابة والتدوين فيما سبق) .

٢ — اتخذ "مرجليوث " من الرواة المتهمين ، ومن طعن الرواة بعضهم في بعض ذريعة لما زعمه من أن الوضع في هذا الشعر كان مستمرا .

وقد رد عليه " ليال " في مقدمته للمفضليات بأنه " لو فرضنا التسليم بذلك فإن من وضعوا هذا الشعر كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة ، مما يدل على هذا الأصل .

٣ — يقول : "إن الشعر الجاهلي لا يمثل الوثنية ولا النصرانية وإنما هو مصبوغ بصبغة إسلامية .

ولكن : يُرَدّ عليه بما جاء في كتاب الأصنام لابن الكلبي من حديث عن الأصنام والأوثان ...

٤ — ويرى : أن هذا الشعر لا يمثل لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية ، كما أنه لا يمثل اختلاف لغة عدنان شمالا عن لغة حمير جنوبا ، وإنما يمثل لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم .

ويُرد عليه : بأن اللهجات قد توحدت في لهجة قريش منذ أوائل العصر الجاهلي ، وذلك بحكم مركز قريش الديني والاقتصادي ...... وقد تواضع العرب — على اختلاف أماكنهم — على أن تكون هذه اللغة لغتهم التي ينشدون بها أشعارهم ويستعملونها في أسواقهم ومجتمعاتهم .

وهكذا دحضت آراؤه وافتراءاته .

* العرب المعاصرون :

١ — الرافعي :

في سنة ١٩١١ ألف المرحوم " مصطفى صادق الرافعي " كتابه تاريخ آداب العرب " وتحدث فيه عن هذه القضية ، إذ خص الرواية والرواة بباب كامل من الجزء الأول نيّفت صفحاته على مائة وخمسين ، حشد فيه من المادة ما لم يجتمع مثله من قبله ولا من بعده في كتاب واحد — غير أنه لم يتجاوز في هذا العرض سرد ما لاحظه القدماء . (١)

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٧٧ (بتصرف) .

٢ — طه حسين :

وما أن استقر الموضوع بين يدى الدكتور طه حسين ، حتى درسه دراسة جديدة فى كتابه " فى الشعر الجاهلى " الذى ألفه سنة ١٩٢٦ م ولكنه أثار حفيظة المسلمين بـ : (١)

أ) إهانته الدين الإسلامى بتكذيب القرآن فى أخباره عن إبراهيم وإسماعيل .

ب) طعنه فى القراءات السبع وعلاقتها بالوحى .

جـ) طعنَ على النبى — صلى الله عليه وسلم — طعنا فاحشا من حيث نسبه .

وقد صودر الكتاب ثم طبع مرة أخرى بعنوان (فى الأدب الجاهلى) بعد حذف فقرات منه كانت هى السبب الجوهرى فى مصادرته ، وكان فى معظم آرائه متابعا للمستشرقين الذين تجرأوا على الإسلام ورسول الإسلام وكتاب الإسلام .

وتصدى للرد عليه علماء أجلاء من الغيورين على كتاب الله ، ولغته والتراث العربى وكان من هذه الردود .

* نقد كتاب الشعر الجاهلى لمحمد فريد وجدى .
* الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة .
* النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى لمحمد احمد الغمراوى .

---

(١) راجع طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام / أنور الجندى ص ١٧٨ وما بعدها وراجع / قرار النيابة فى كتاب الشعر الجاهلى وثيقة واردة فى مجلة فصول العددان ١ ، ٢ المجلد التاسع أكتوبر ١٩٩٠م .

* محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد الخضري .
* نقض كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد الخضر حسين .
* نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي للدكتور عبد الحميد المسلوت .

وقد انتهى طه حسين في كتابه إلى " أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي " (١)

وهو متأثر — في ذلك — برأي "مرجليوث " السابق ذكره . غير أن طه حسين يبقي على بقية قليلة من هذا الأدب الجاهلي ، إلا أنه يعود فيقول إن هذه البقية لا فائدة فيها ولا غناء لأنها لا تدل على حياة الجاهليين .

(١) في الأدب الجاهلي ص ٦٥ ط دار المعارف / الحادية عشرة .

* دوافع شك طه حسين في الشعر الجاهلي :

١ — يرى طه حسين أن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية ·

يقول : (١)

" أنا لا أنكر الحياة الجاهلية ، وإنما أنكر أن يمثلها هذا الأدب الذي يسمونه الأدب الجاهلي فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي لأني لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقا أخرى ، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته ، أدرسها في القرآن فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي ·· "

ثم يأخذ في سرد دوافع شكه في هذا الشعر ·

أ) الحياة الدينية :

فيرى أن هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية · والا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة !

أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين !!

وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر ، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو

---

(١) نفسه ص ٧٠

أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال ." (١)

ب) الحياة العقلية :

وكما أنه لا يمثل الحياة الدينية للجاهليين كذلك لا يمثل الحياة العقلية لهم :

" ولكن القرآن الكريم لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظا عظيما .. الخ (٢)

جـ) الحياة السياسية :

" والقرآن لا يمثل الأمة العربية متدينة مستنيرة فحسب ، بل هو يعطينا منها صورة أخرى يدهش لها الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الإسلام فهم يعتقدون أن العرب قبل الإسلام كانوا أمة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي .... وأن الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي أثرت في الشعر الإسلامي ، لم يتأثر بحضارة الفرس والروم .. وأنى له ذلك !! لقد كان يقال في صحراء لا صلة بينها وبين الأمم المتحضرة .

كلا ! القرآن يحدثنا بشيء غير هذا ، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم .. أليس في القرآن سورة تسمى " سورة الروم " .. يصف فيها القرآن عنايتهم بسياسة الفرس والروم . وهو يصف

(١) نفسه ص ٧٢ ، ٧٣

(٢) نفسه ٧٣

اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة : " لإيلاف قريش ... " (١)

د) الحياة الاقتصادية :

ويرى أن القرآن الكريم صوّر حياة العرب الاقتصادية حين " قسم العرب إلى فريقين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين في الربا، وفريق الفقراء المعدمين أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من أن يقاوموا هؤلاء المرابين أو يستغنوا عنهم . وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم وقوة إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين " .. وذلك بتحريم الربا ، وترغيب الأغنياء بالتصدق على الفقراء ، كما أنه شرع الزكاة لسد حاجة الفقراء ... ثم يتساءل : التمس لي هذا أو شيئا كهذا في الأدب الجاهلي ، وحدّثني أين تجد في هذا الأدب شعره ونثره ما يصور لك نضالا ما بين الأغنياء والفقراء " (٢)

ثم يذكر " أن الشعر الجاهلي يمثل العرب أجوادا كراما مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها ، ولكن في القرآن الكريم إلحاحا في ذم البخل ، وإلحاحا في ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذًا من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية " (٣)

هـ) الحياة الاجتماعية :

كما يرى أن الشعر الجاهلي " لا يعنى إلا بحياة الصحراء والبادية وهو لا يعنى بها إلا من نواح لا تمثلها تمثيلا تاما فإذا عرض لحياة المدر

---

(١) نفسه ٧٤، ٧٥
(٢) في الأدب الجاهلي ٧٧ — ٧٩
(٣) في الأدب الجاهلي ٧٧ — ٧٩

فهو يمسها مسًّا رفيقا ولا يتغلغل فى أعماقها ، وما هكذا تعرف شعر الإسلام . ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد فى الشعر الجاهلى ذكر البحر أو الإشارة اليه ، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . أما القرآن فيمنّ على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر ، وبأن لهم فى هذا البحر منافع كثيرة مختلفة أذكر منها الملاحة ، فالقرآن يذكر الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، وأذكر منها الصيد ... الخ (١)

وينتهى الى قوله " أرأيت أن التماس الحياة العربية فى الجاهلية فى القرآن أنفع وأجدى من التماسها فى هذا الأدب العقيم الذى يسمونه الأدب الجاهلى ! " (٢)

٢ — اختلاف اللغة :

ويرى أن الادب الجاهلى لا يمثل اللغة الجاهلية لأن لغة قحطان تخالف لغة عدنان ولكنا حين نقرأ الشعر المنسوب إلى شعراء هذه القحطانية فى الجاهلية لا نجد فرقا بينه وبين شعر العدنانية بل لا نجد فرقا بينه وبين لغة القرآن .. ثم ينتهى إلى القول بأن الشعر المضاف إلى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية فى شىء لم يقله شعراؤها وإنما حمل عليهم بعد الإسلام .

٣ — اختلاف اللهجات :

وبعد أن نفى شعر قحطان انتقل إلى شعر عدنان ، فوجد أن اختلاف اللهجات بين العدنانيين أنفسهم لم يظهر فى هذا الشعر

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٧٧ — ٧٩
(٢) نفسه ص ٨٠

المنسوب إليهم فمن المؤكد أن العدنانيين وإن كانوا ينطقون بلغة واحدة إلا أن لهجاتهم كانت متخالفة متغايرة فأين هذا الاختلاف في ذلك الشعر ؟ ! إن هذا يرجح أن هذا الشعر لم يقل في الجاهلية وإنما قيل بعد الإسلام ..

٤ — الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن والحديث .

يقول في ذلك :

" إنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن الكريم والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسرا ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قُدَّ على قَدّ القرآن والحديث كما يُقَد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة . إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء ، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رزقوا حظا من السذاجة لم يتح لنا مثله . إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة في الموازاة على الشك والحيرة .. "

* أسباب النحل في رأى الدكتور / طه حسين :

١ — السياسة :

ويعني بها العصبية بين المهاجرين والأنصار أى بين قريش والأنصار وذلك أن كل فئة كانت تمتز بماضيها من خلال تراثها الشعرى فكانت في حاجة ملحة إلى هذا الشعر ، فاستكثرت منه ، وقالت منه القصائد ونحلتها شعراءها القدماء .

٢ ــ الدين :

ويرى أن " العواطف والمنافع الدينية لم تكن بأقل من العواطف والمنافع السياسية أثرا فى تكلف الشعر وانتحاله وإضافته إلى الجاهليين " وذلك لأهداف منها :

أ) هذا النحل فى بعض أطواره قُصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبى ، ومن هذا النوع الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهدا لبعثة النبى ...

ب) هناك شعر نسب إلى عرب الجن كان الغرض منه إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة فى كل شئ .

جـ) " ونوع آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش " .

د) ما يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوبا فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود وغيرهم .

٣ ــ القصص :

يقول " وأنت تعلم أن القصص العربى لا قيمة له ولا خطر فى نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين . وإذن فقد كان القصاص أيام بنى أمية وبنى العباس فى حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ... وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون .. وكان هؤلاء القصاص يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها " .

٤ — الشعوبية :

وهي الخصومة بين العرب والموالي ف " هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخبارًا وأشعارًا وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ٠٠ وكانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم "

٥ — الرواة :

وذلك أنهم في رأيه " بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالي ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة ، ٠٠٠ ويقول : " وهناك طائفة من الرواة غير هؤلاء ليس من شك في أنهم كانوا يتخذون النحل في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب ٠ وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث تريد بهم هؤلاء الأعراب الذين كان يرتحل إليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب ٠٠ "

الرد على طه حسين

سبق أن ذكرنا بعض الكتب التي ألفت للرد على طه حسين ، وقد فندت آراءه ونقضت أدلته ، ودحضت حججه ٠

أولا : نقد منهج الكتاب :

وقد تناول هؤلاء النقاد منهج الكتاب وطريقته فقالوا :

١ — ان طه حسين جافى الطريقة العلمية ، ولم يؤسس لنظريته بالتثبت أولا من الحقائق قبل أن يدخل في دور الفرض ، وأنه يبدأ بالفرض ثم يبني

عليه فرضا آخر ، ثم ينتهي بالقطع والجزم والثبوت ٠

٢ — إن منهج ديكارت لم يكن منهج شك للشك في ذاته ، وإنما يتخذ الشك وسيلة لليقين ٠

٣ — أمر آخر يتصل بمجافاة الطريقة العلمية وهو إيراد النصوص على وجه يختلف عما كانت عليه في حقيقتها ، والاستدلال بها على ما لا تدل عليه في أصلها لو أوردت كاملة ٠

فهو مثلا يستدل بقول ابن سلام عن خلف " كان أفرس الناس ببيت شعر " فهو يوجه كلام ابن سلام هذا على أن " خَلَفًا " كان حاذقا ماهرا قادرا على نحل الشعر ووضعه ولكن ابن سلام لم يُرِدْ هذا بل أراد نقيضه ونص ابن سلام بكامله هو " أجمع أصحابُنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لسانا ، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه " وأي توثيق لخلف أوثق من هذا ٠٠٠ !

ثانيا : نقد الحجج والأدلة :

١ — قوله إن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية لعـــرب الجاهلية ردّ عليه السيد " محمد الخضر حسين " وبين أن هذه الشبهة مما استابه المؤلف من مقال مرجليوث .. ثم رد على ادعائه هذا قائلا :

" وخلاصة الجواب أن معظم شعر العرب كان في الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذى يمثل دينا غير الإســلام ولا سيما دين اللات والعزى ، وعلى الرغم من هذا كله وصلت إلينا بقية من الشعر الذى يحمل شيئا من الروح الديني ، تجده في كتاب الأصنــام لابن الكلبي وغيره " .

كما رد عليه صاحب الشهاب الراصد بقوله " إنه لم يتقدم إلينا بدليــل ولم يستقرئ دواوين الشعر الجاهلي " (١)

٢ — وأما أنه لا يمثل الحياة العقلية للعرب في الجاهلية فهو أمــر مردود ، فالشعر الجاهلي يشهد لقائليه بالذكاء وقوة البادرة ومتانــة النادرة ..

وفيه معان سامية وحكمة صادقة . ومن يقرؤه خالي الذهن من كل ما فيــه يقضى العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم ودقة أذهانهم ..

والمؤلف يبْخس قيمة الشعر الجاهلي ويريد أن يجعله مثال الغباوة والجهل. يقول جورجى زيدان : وقد يتبادر إلى الذهن أن أولئك البدو كانــوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . ولكــن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكــاء

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي ٤١٢ ، ٤١٣

ونباهة ، واختبار وحنكة ، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم ٠٠ " (١)

٣ — وأما أنه لا يمثل حياة العرب الاقتصادية وقصّر عن ذلك تقصيرًا شديدا في حين صورها القرآن فقد رد عليه " بأنه استشهد على الحياة الاقتصادية الخارجية بآية واحدة ليس فيها إلا إشارة موجزة ، وأن في الشعر الجاهلي تفصيلا لهذه الإشارة ٠٠ "

ولو أن الدكتور طه حسين قرأ القليل المكتوب عن ابن الزبعرى في طبقات ابن سلام لوجد فيه ما لا يقل في دلالته الاقتصادية عن آية لإيلاف قريش (٢)؟ كما أنه يجعل القرآن كلام الله موضع موازنة مع كلام البشر ٠٠ وهذا مردود من البداية فالقرآن كتاب دين ، يعالج النقائص ، ويصلح العيوب ويغير من عادات القوم وطبائعهم لأنه كتاب إصلاح وهداية ٠٠ وليس يطلب من الشعر ذلك فهو تعبير عن خلجات النفس ، ونوازع القلب ٠ فما شأنه بالربا وغيره !!

وكما لم يلم المؤلف بمواطن الأدب الجاهلي التي تدل على الحياة الاقتصادية الخارجية ، كذلك لم يلم بمواطن الادب الجاهلي التي تدل على الحياة الاقتصادية الداخلية ٠

٤ — وأما أن الشعر الجاهلي يمثل العرب أمة معتزلة ، لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي فهو مردود أيضا ٠

---

(١) نظرية الانتحال / الدكتور المسلوت ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، تاريخ آداب اللغة العربية / جورجي زيدان ١ / ٢٩

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ٤١٤ ، ٤١٥ ، ونظرية الانتحال ص ١٢٧ بتصرف ٠

أليس في هذا الشعر ما يحدث بأن من الشعراء — وهم زعماء القبائل — من كانوا يسافرون إلى الشام وإلى اليمن ، بل إلى فارس وإلى القسطنطينيه تجد هذا في شعر عمرو بن كلثوم وامرئ القيس و أمية بن أبي الصلت والأعشى ميمون بن قيس !!
أو لم يقرأوا أن أبا الصلت أو أمية بن أبي الصلت رحل إلى سيف بن ذي يزن ليهنئه بالانتصار على الحبشة وأنشد بين يديه قصيدته التي يقول فيها :
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... في رأس غمدان دارًا منك محلالا
بل وقرأوا أن الأعشى كان يفد على ملوك فارس ، ولذلك كثرت الفارسية في شعره .(١)

ه — وانكر المؤلف الشعر الجاهلي وذهب إلى نحله لأنه لا يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه مستدلا بأن حقيقة لغة عدنان تخالف لغة قحطان إلا أن هذا الاختلاف لم يظهر في ذلك الشعر ... وهذا باطل .
لأن القحطانية والعدنانية في الأصل لغة واحدة ، ثم حدث من تفرق القبائل واختلاف البقاع واختلاط السكان بألوان وأنماط من الناس والأجناس أن تفرقت الألسنة تفرقا قريبا أو بعيدا يتمثل في لهجات أو لغات(٢) ...

(١) نظرية الانتحال ص ١٢٧
(٢) نفسه ومصادر الشعر الجاهلي ٤١٩ ، ٤٢٠

وها نحن الآن — كعرب — تختلف لهجة كل قطر عن سائر الأقطار ومع ذلك حين نخطب أو نكتب أو نشعر باللغة الفصحى فإنها تكون لغة مشتركة بين سائر العرب.

فهناك لغة أدبية يصطلح عليها كل من ينتمي إلى العربية ، تلك اللغة كانت بلهجة قريش التي عمت في سائر أقطار الجزيرة نظرا لمركز قريش الديني والتجاري والسياسي .

نقد أسباب النحل (١)

١ — السياسة ونحل الشعر :

أجمع النقاد على أن الدكتور طه حسين لم يورد شيئا من الشعر الجاهلي الذي دعت السياسة إلى نحله ، وكان عليه أن يأتي بمثل أو مثلين لهذا الشعر ... لكنه لم يفعل .

٢ — الدين ونحل الشعر :

يقول " محمد الخضر حسين " : " ينكر المؤلف كل ما يروى من الشعر والأخبار الممهدة للبعثة النبوية ، وإنكارها على هذا الوجه إنما تسمعه ممن ربط قلبه على نفس النبوة ، إذ ليس من المحتمل عنده أن يقال فيها شعر أو يرد عنها خبر قبل أن يدعيها صاحبها ، أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، لكن عليهم أن يفحصوا ذلك بدقة ، وكذلك فعل علماء الإسلام ... " .

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٢١ وما بعدها .

وقد رد النقاد على قوله إن المفسرين كانوا يؤلفون الأشعار لتفسير كلمات القرآن فذكروا أن تفسير شواهد الكشاف — مثلا — ٧٢٧ شاهدا، وليس هذا عدد كلمات القرآن، وأما الخطأ ففي ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جيء بها لإثبات عربية القرآن !

أكثر هذه الشواهد لشعراء إسلاميين ، وقليل منها ما هو للجاهليين أو مجهولين .

كما أن الاستشهاد بها ليس لإثبات عربية القرآن ، وإنما لتوضيح معنى كلمة قد تبدو غريبة ليس غير .

٣ — القصص ونحل الشعر :

قال النقاد : إن طه حسين في هذا الموضع لم يأت بجديد ، " فقد فطن العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلف حينا ، ومن سخف وإسفاف حينا آخر ، وفطنوا إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب إليهم " .

٤ — الشعوبية ونحل الشعر :

لم يأت طه حسين بدليل على أن بعض الشعوبية انتحل شعرا جاهليا — ومن هنا سقط غرضه من أساسه .

٥ — الرواة ونحل الشعر :

رأى الدكتور أن الرواة طعن بعضهم في بعض مما يدل على كذبهم وضعف الثقة فيهم فيردون عليه بقولهم : " وإن كان بعض المتعاصرين والأنداد من الرواة طعن بعضهم في بعض ، فليس في الطعن حجة أو دليل

على صحة التهمة ، لان اتحاد الحرفة والمنافسة فى الشهرة والمزاحمة على نيل الحظوة قد تدفع ببعض الرواة إلى الحسد والغيرة ، لهذا قال الأقدمون : " إن المعاصرة حجاب " حتى إن رواة ثقات كالأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد كانوا يتطاعنون ويضعّف كل منهم رواية صاحبه ولكن المحققين يتزهونهم عن الكذب فلا يجوز إذا أن تأخذ بما يقوله الرواة بعضهم فى بعض ....

كما أن العلماء فطنوا إلى الشعر الموضوع على ألسنة بعض الرواة ويصعب أن يغافلهم أحدهم فيضيف شعرا دون أن يتنبهوا له ويشيروا إليه ....

وهكذا دحضت آراء طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى كما دحضت آراء متبوعه مرجليوث وبعد . فنحن لا ننكر أن هناك شعرا جاهليا موضوعا ، لكن ذلك لم يكن غائبا عن القدماء ، فقد قاموا بنخل الشعر نخلا حتى تثبتوا من صحته .. وعليه فما شكوا فيه لنا أن نشك فيه أما ما وثقوه ورواه أثباتهم وعلماؤهم فعلينا أن نتقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغى أن نُخضعه للامتحان .

الفصل الرابع :
موضوعات الشعر الجاهلي

موضوعات الشعر الجاهلي

يرجع فضل تقسيم الشعر إلى موضوعات أو أغراض إلى " أبي تمام " وذلك في كتابه " الحماسة " حيث قسم فيه موضوعات الشعر إلى عشرة موضوعات هي :

الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ، ومعهم المديح والصفات والسير والنعاس والملح ومذمة النساء . وهي موضوعات يتداخل بعضها في بعض . وقد أغفل إغفالا تاما باب العتاب والاعتذار .

وأما " قدامة بن جعفر " فموضوعات الشعر عنده ستة هي : المديح والهجاء ، والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه .

وقد جعلها " ابن رشيق " تسعة موضوعات في كتابه " العمدة " وهي النسيب ، المديح ، الافتخار ، الرثاء ، الاقتضاء ، والاستنجاز ، العتاب الوعيد والإنذار ، الهجاء ، الاعتذار . ويقول " العسكري : " وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح ، والهجاء ، والوصف والتشبيه ، والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه " وهو تقسيم جيد إلا أنه نسي باب الحماسة أهم موضوع في الشعر الجاهلي .

١ — الوصف :

هو تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم ، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال ، وتحليل المشاعر الإنسانية

تحليلا يصل بك إلى الأعماق " (١)

يقول ابن رشيق : " والشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه " . (٢)

يصف الشاعر أحاسيسه عند فقد عزيز لديه فيكون الوصف رثاء ، ويصف مشاعره تجاه إنسان يستحق الثناء فيكون الوصف مديحا ، ويعجب بنفسه فيصفها فيكون الفخر ، ويعجب بامرأة فيصفها فيكون الغزل ... الخ .

ولكن ، حين يطلق الوصف غرضا مستقلا فإنه يراد به وصف الطبيعة صامتة وصائتة ..

وقد وصف الشعراء العرب ما أحاطت به معارفهم ، وأدركه عيانهم ومرت به تجاربهم ، ولا تعدو أوصافهم ما رأوه في باديتهم ..

وقد برع بعضهم في وصف أشياء بعينها ، فكان من أشهر وصافي الخيل مثلا : امرؤ القيس ، وأبو دؤاد الإيادي ، والنابغة الجعدي ، وغيرهم .

يقول امرؤ القيس في وصف فرسه :

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتِها ∴ بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ (٣)

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا ∴ كجُلْمود صخرٍ حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ (٤)

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحَاتُ على الوَنَى ∴ أَثَرْنَ الغُبَارَ بالكَديدِ المُرَكَّلِ (٥)

---

(١) الوصف في الشعر العربي / عبد العظيم قناوي ١ / ٤٢ ط الحلبي .

(٢) العمدة ٢ / ٢٢٦

(٣) الوكنات : جمع وكنة وهي بيوت الطير ، المنجرد : الماضي في السير فينجرد عن الخيل لسرعته ، أو المنجرد قصير الشعر . الأوابد : الوحوش ، هيكل : ضخم .

(٤) مكر : لا يُسبق في الكر . مفر : لا يُسبق في الفرار . الجلمود : الحجر

(٥) مسح : كثير الجري . أو هو كالسبح في الماء . الوَنَى : الفتور والضعف . الكديد : الموضع الغليظ ، المركل : الذي يركل بالأرجل مرة بعد أخرى .

يَزِلُّ الغُلَامُ الخِفُّ عن صَهَوَاتِــه ∴ ويلوى بأثواب العنيف المثقــل (١)
دَرِيرٍ كخُذْرُوفِ الوليد أَمَــرَّه ∴ تتابعُ كفَّيه بخيْطٍ موصــل (٢)
له أيطلا ظبي وساقا نعامــة ∴ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٣)
ضليع إذا استدبرته سد فرجــه ∴ بِضَافٍ فُوَيْقَ الأَرض ليس بأَعْزَل (٤)
كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إِذَا انْتَحَى ∴ مَدَاكُ عَرُوسٍ أو صلاية حنظــل (٥)
كأن دماء الهاديات بنحــره ∴ عصارة حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّــل (٦)

---

(١) يزل : يقع • الخف : الخفيف — الصهوات : جمع صهوة وهى ظهر الفرس ، يلوى : يرمى ويبعد ، بأثواب العنيف : ببدنه ، المثقل الثقيل •

(٢) درير : مستدر فى العدو • الخذروف : الخَرَّارة التى يلعب بها الصبيان تسمع لها صوتا فهى سريعة المر • أَمَرَّهُ : أحكم فتله • خيط موصل : لعب به حتى خف وأخلق وملس فتقطع فهو أسرع لدورانه •

(٣) أيطلا ظبى : خصراه • إرخاء سرحان : جرى الذئب • التقريب : رفع اليدين معا ووضعهما معا. تتفل : ولد الثعلب •

(٤) ضليع : قوى • ضاف : ذيل طويل سابغ — أعزل : أى ذنبه فى ناحية

(٥) المتنان : ما على يمين القفا وشمالها — انتحى : اعتمد • مداك العروس : الحجر يسحق به الطيب والصلاية : مدق الطيب •

(٦) الهاديات : السابقات المتقدمات • • يريد : أنه فرس يلحق الهاديات ، فيطعنها فتصيب دماؤها نحره •

ومن أطرف وأندر ما جاء من وصفهم قول " الخنساء " تصف سباقا بين أبيها وأخيها :

جَارَى أباه فأقبلا وهُمَا ∴ يتَعَاوران ملاءة الحُضْر (١)
حتى اذا نَزَتِ القلوب معًا ∴ لَزّتْ هناك العُذْرَ بالعذر (٢)
وعلا هتاف الناس أيهما ؟ ∴ قال المجيبُ هناك : لا أدرى
بَرَزَتْ صحيفةُ وجه والده ∴ ومضى على غُلَوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه ∴ لولا جلالُ السّن والكِبَر
وهما كأنهما وقد برزا ∴ صقران قد حطا على وكر

٢ — الحماسة :

الحماسة : مصدر : حمس بمعنى اشتد ، والحماسة الشجاعة .

والحماسة فى الشعر : التغنى بالصفات التى تنبئ عن القوة ، وتدل على الشجاعة والاستهانة بالصعب من الأمور ، والمسير من المخاطر ، وخوض غمار الحروب ، وذم الجبن والخور والفرار وأقرب معنى لها هو : إثارة الحمية والشجاعة فى النفس وفى نفوس الغير ..

ومن هذا اللون قول الخنساء تحرّض قومها وتحمسهم لإدراك ثأر صخر :

أبلغ خفافًا وعوفًا غَيْرَ مقصرة ∴ عميمةً سوف يبدو كل أسرار (٣)

---

(١) يتعاوران : يتبادلان . الملاءة : المراد بها هنا الغبار . الحُضْر نوع من الجرى .
(٢) نزت القلوب : اشتاقت لمعرفة النتيجة . لزت : من اللزم .
(٣) خفاف وعوف : ابنا امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور . غير مقصرة : أى رسالة غير مقصرة عن أحد منهم وإنما تأتيهم عامة . عميمة عامة .

والحرب قد ركبت جرباء باقــرة ∴ حلّت على طبق من ظهرها عارى (١)

شدّوا المآزرَ حتى يُسْتَدَفَّ لكـــم ∴ وشمّروا إنها أيام تشمـــار (٢)

وابكوا فتى الحى وافته منيتُـــه ∴ فى يوم نائبة نابت وأقـــدار

إلى أن تقول محمّسة ومثيرة بنى سليم ليدركوا ثأرهم ، ويغسلوا عارهم :

لا نوم حتى تعود الخيل عابسةً ∴ يَنْبِذْنَ طَرْحًا بمُهْرَاتٍ وأمْهار (٣)

أو تحفزوا حفزةً والموت مكتنـــعٌ ∴ عند البيوت حُصَيْنًا وابن سَيَّار (٤)

فتغسلوا عنكمُ عارًا تجلّلكـــم ∴ غسلَ العَوارِكِ حَيْضًا بعد إطهار (٥)

٣ ــ الفخر :

هو التمدح بالخصال الحميدة ، والخلال الشريفة ، والتغنـــى بالأمجاد ، ويكون عادة بادعاء أشياء للنفس ، أو للقبيلة ليست فى متناول الجميع بيسر وسهولة . وهو بذلك يكون قريبا من المدح .

---

(١) ركبت جرباء : أى ركبت فتنة جرباء عارية من دبرها ، وهذا كناية عن إيذائها للراكب . باقرة : شديدة وتبقر : تفسد . حلت : نزلت . طبق : أى طبق من الأرض . عار : منكشف .

(٢) يستدف : يتهيأ لكم أمركم . تشمار : مصدر من شمرت .

(٣) تعود الخيل عابسة : تغزو القوم الذين قتلوا صخرا . ينبذن طرحا بمهرات وأمهار : تترك أولادها .

(٤) تحفزوا حفزة : تطعنوا طعنة . الموت مكتنع : أى قريب . حصين هو حصين بن حمام المرى . وابن سيار : هو منصور بن سيار الفزارى .

(٥) العوارك : الحائض . عند أطهار : أى عند انقطاع حيضها .

وللفخر عند العرب مكانة عظيمة ، ولا سيما الفخر القبلي الذي يعد بمثابة خط الهجوم الأول ، ترهب به القبيلة خصومها ، وتضعف معنوياتهم ، فهو يشبه سلاح الشئون المعنوية بالقوات المسلحة الآن .

والفخر إما فردي ، وإما قبلي جماعي .

وفي الفخر الفردي يكون اعتداد الشاعر بفضائل نفسه من عفة وصبر وقوة وشجاعة في الحروب ... الخ .

ومن الفخر الفردي قول عنترة :

هَلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ∴ إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمِ
يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعةَ أنني ∴ أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ

والفخر القبلي كثير لدى الجاهليين ، فالجاهلي يستمد كيانه وشخصيته من مجد القبيلة وشرفها ومن هنا حرص على إعلاء هذا المجد فضلا عن الإشادة به ، وإذاعته بين الناس ، ومنه قول " الخنساء " في الجاهلية :

وَخَيْلٍ تَكَدَّسُ بالدارعين ∴ وتحت العجاجة يَجْمِزْنَ جَمْزَا (١)
جَزَزْنا نواصيَ فرسانهم ∴ وكانوا يظنون أَنْ لَن تُجَزَّا
نَعِفُّ ونعرف حق القِرَى ∴ ونتخذ الحمد مجدًا وكنزَا
ونلبسُ في الحرب نَسْجَ الحديد ∴ ونلبس في الأمن خزًّا وقَزَّا

---

(١) التكدس : مشي ليس بالسريع ولا بالبطيء إلى الحرب ، ولا يكون المشي المتكدس إلا للقتال. العجاجة : الغبار الذي تثيره الخيل لسرعتها وكثرتها . الجمز : ضرب من العدو دون الحضر الشديد وفوق العَنَق .

فقومها أهل بأس وقوة ، وأهل عفة وكرم ، وهم ذوو سعة ويسار ..
ومن الفخر القبلي قصيدة عمرو بن كلثوم " المعلقة " ...

٤ — المدح :

هو الثناء بالشعر على إنسان لفضيلة اتصف بها ، أو لعمل جليل قدمه ، أو لمعروف أسداه . فيكون المدح — حينئذ — اعترافا بفضل الممدوح . وقد يكون المدح رغبة في العطاء ، وهذا ما أطلق عليه التكسب بالشعر، وأشهر فرسان هذا النوع في الجاهلية : النابغة وزهير والأعشى .. وأكثر شعراء الجاهلية لم يمدحوا لرغبة ، لأنهم اعتزوا بذواتهم وكانوا أولي حمية وأنفة ، ومن هنا تأخر المدح عن كثير من فنون الشعر وقل عند أكثر الجاهليين ولا سيما الشعراء الفرسان .

ومن مشهور مدح الجاهليين قول " زهير " في معلقته يمدح " الحارث ابن عوف " و " هرم بن سنان " :

سَعَى ساعيَا غَيْظِ بن مُرَّةَ بعد ما ∴ تبزَّلَ ما بين العشيرة بالدم (١)
فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله ∴ رجالٌ بَنَوْهُ من قريش وجُرْهُم
يمينًا لنعم السَّيدان وُجِدتُمَا ∴ على كلِّ حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ (٢)

---

(١) الساعيان هما : الحارث بن عوف وخارجة بن سنان المريين .
تَبَزَّل : تقطع .

(٢) السحيل : خيط واحد . والمبرم : خيط مفتول من خيطين أي : في كلا الأمرين الشديد واللين ، المحكم وغير المحكم .

تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ∴ تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (١)

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ∴ بمالٍ ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن ∴ بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عليا معد هديتما ∴ ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم (٢)

٥ ـ الهجاء :

وهو ضد المديح ، وفيه تعديد لعيوب الأعداء ، وإظهار مقابحهم وكشف مساوئهم والتشنيع عليهم ، والسخط والسخرية منهم .

وكثر بسبب النزاع القبلي والتنافس على الماء والطعام مما استتبع حروبا مستمرة أججت الهجاء بين الفرق المتحاربة .

والصدق الفني في الهجاء متحقق أكثر من سائر الأغراض ، لأن الشاعر يهجو لا من أجل الهجاء ، وإنما استجابة لعاطفة صادقة ومشاعر حقيقية .... ومن هنا امتنعت الخنساء عن هجاء قيس بن الخطيم وذلك حين طلب منها " حسان بن ثابت " هذا الهجاء ، فقالت : لا أهجو أحدًا أبدا حتى أراه فجاءته يوما فوجدته في مشرقة متلفا في كساء له فنخسته برجلها ، وقالت : قم مقام ، فقالت أدبر فأدبر ، أقبل فأقبل ، وكأنها تعترض عبدا تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائما ، فقالت : والله لا أهجو هذا أبدا (٣)

---

(١) منشم : امرأة كانت تبيع العطر في الجاهلية ، تعطر من عطرها قوم وخرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعا فصاروا يضربون بها المثل في الشؤم .

(٢) عليا معد : أرفعها . يستبح كنزا : أي يجد كنزا مباحا فيأخذه لنفسه فيعظم حينئذ .

(٣) الأغاني ٣/١٠٥٩ (دار) .

ولم يستحسن النقاد الهجاء المقذع ، بل عابوه — يروى " عمرو بن العلاء " أنه قال : " خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها " (١)

وقال خلف الأحمر : " أشد الهجاء أعفه وأصدقه " (١) ومن أشد الهجاء وأقساه الهجاء بالتفضيل ، وهو ما سمي بالهجاء المقذع ، وذلك بأن يفاضل الشاعر بين رجلين فيمدح هذا ويذم ذاك . مثال ذلك :

قول العباس بن مرداس (في الجاهلية) :

لَعَمْرى لقد أَوْفَى الجَوَادُ ابْن عاصم ∴ وأحْصَنَ جَارًا يوم يَحْدِجُ بَكْرَه (٢)

أقام عزيزًا مُنْتَدَى القوم عنده ∴ فلم يَرَ سَوْآتٍ ولم يَخْشَ غَدْرَه (٣)

أقام بسَعْدٍ يَشْرَبُ الماء آمنا ∴ ويأكلُ وَسْطَاها ويَرْبِضُ حُجْرَه (٤)

فهذا مدح " لقيس بن عاصم " الذي أكرم جاره ، وقام بحقه خير قيام ، ولما نزل هذا الضيف نفسه عند " حوين الطائي " وثب عليه رجال من طيء فقتلوه ، وأخذوا ماله . يقول " العباس " في حوين :

فإنك إذْ بادلت قيس بن عاصم ∴ جُوَيْنًا لمختار المنازل شَرَّه (٥)

---

(١) العمدة : ٢/١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) أحصن : منع وحفظ . حدج البعير — كضرب — شد عليه الحدج والأداة ووسقه . البكر : الفتى من الإبل .

(٣) منتدى القوم : مجلسهم الذي يتحدثون فيه . غدره : يجوز أن يكون بالهاء وبالتاء .

(٤) سعد : هم بنو سعد قوم قيس بن عاصم . يأكل وسطاها . من أمثال العرب أي يختار أحسن منطقة في المرعى وربض حجره : أي ناحية .

(٥) شرة : مؤنث شر .

فأصْبَحَ يَحْدُو رَحْلَه بمَفَـــــازَةٍ ∴ وماذا عدا جَبّارًا كريمًا وأسره (١)
يظل بأرض الغدر يأكل عهده ∴ جوين و " شمخ " خَارِبَيْن بوَجْره (٢)
يُدَمَّان بالأَزْوَاد والزاد محـــرم ∴ مروقان من عرق شرورا وفجره (٣)

ولو أنه هجا " جوينًا " دون أن يمدح " قيسا " لما كان مؤثرا بنفس القوة المتحققة ، إذ من المعروف أن " الضد يظهر حسنه الضد " ... وبهذا صار " جُوَيْن " عاريا من كافة الفضائل الإنسانية بوصفه في كفة ، و" قيس " في كفة أخرى ، فطاشت كفة " جوين " وثقلت كفة " عاصم " .

وقد يرفض بعض الشعراء الهجاء ويأباه ، لأنه لم يتعود الخنـــا والفحش ، وهذا ما فعله " صخر " أخو الخنساء حين طلب إليه قومه أن يهجو غطفان الذين قتلوا أخاه " معاوية " فقال :

وعاذلةٍ هَبَّتْ بليلٍ تَلُومُــــني ∴ ألا لا تلوميني كفى اللوم ما بيا
تقول : ألا تهجو فوارس هاشم ∴ ومالي أن أهجوهم ثم ماليـــا
أبى الهَجْوَ أني قد أصابوا كريمتي ∴ وأنْ ليس إهْداءُ الخَنَا من شماليا (٤)

---

(١) حدا البعير : ساقه . المفازة : الفلاة التي لا ماء فيها . أسرة الرجل : أهله الأدنون .
(٢) يأكل عهده : ينكثه وينقضه . شمخ : اسم رجل : جُوَيْن : هو جوين الطائي الذي قُتل في جواره الرجل القضاعي . الخارب : اللص وجره : اسم موضع .
(٣) يذمان : يتهاونان . الأزواد : جمع زاد . المحرم : الحرمة التي لا يحل انتهاكها . العرق : الأصل . الفجرة : الفجور ، والفجرة الأمر القبيح من كذب أو زنا .
(٤) الخنا : الفحش . شماليا : صفاتي وأخلاقي .

ويلاحظ على الهجاء أنه كان بسيطا ، غير معقد ، واتسم بعدم الإفحاش إلا نادرا ، واقتصر على التنديد بالمعايب الشخصية ، والتشهير بالأشخاص ذوى الأخلاق السيئة التى تتنافى مع صفات العرب وأخلاقهم وأعرافهم .

٦ — الرثاء :

هو بكاء الميت ، والتغنى بفضائله ، وإظهار لوعة القلب وحرقته بفقده ، والأسى لفراقه وبيان مدى خسارة القوم بوفاته .

وقد ذهب " قدامة " وتابعه " ابن رشيق " إلى أنه ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يذكر من اللفظ ما يدل على هالك مثل : كان ، تولى ، قضى نحبه .. وما أشبه ذلك ..

وهذا غير صحيح . فهذا " ابن رشيق " يناقض نفسه حين يقول : وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بيّن الحسرة ، مخلوطا بالتلهف والأسى والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا أو كبيرا " فالعاطفة هنا غيرها هنالك . هنا حزن ولوعة وهناك إعجاب ... صحيح أنه قد يظهر التشابه ولكن فى نوع معين من الرثاء وهو التأبين .

فالرثاء على ثلاثة أنواع :

أ) التأبين :

وهو " الثناء على الشخص حيا أو ميتا ، ثم اقتصر استخدامه على الموتى إذ كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت ، فيذكروا مناقبه ، ويعدّدوا فضائله ، ويشهروا محامده .. "

ب) الندب :

وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية ، والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية ، وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسفك الدموع .

جـ) العزاء :

وهو الصبر على كارثة الموت والرضا بمر القضاء والتسليم بأن ذلك هو مآل الناس جميعا .

وهذا مثل ما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي ∴ على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ∴ أعزى النفس عنه بالتأسي

وقد يكون الرائي : أخا أو أبا ، أو ابنا ، أو زوجا ، أو أختا ، أو قريبا ، أو صديقا . وتختلف العاطفة حسب صلة الميت بالباكي شدةً وفتورًا ، قوةً وضعفًا .

ورثاء النساء يختلف عن رثاء الرجال وذلك لأن النساء " أشجى الناس قلوبا عند المصيبة ، وأشدهم جزعا على هالك ، لما ركّب اللهُ في طبعهن من الخور وضعف القزعة " (١)

ويقول بروكلمان : (٢)

" لعل المرثية الشعرية نشأت نشأتها الأولى من ندب النوائح المجرد من القوالب ، ولهذا غلب تعهده بعد ذلك على النساء .. وقد بلغت

(١) العمدة لابن رشيق ٢ / ١٢٣ مطبعة الاتحاد الأخوى .
(٢) تاريخ الأدب العربي ١ / ١١٤

" الخنساء " في ذلك أقصى مراتب الشهرة " .

والرجل يستطيع أن يتجلد ويصبر ويكتم أحزانه ولو كان ذلك تكلفا كما قال أبو ذؤيب الهذلي " :

وتَجَلُّدى للشامتين أُريهـم ∴ أنى لريب الدهر لا أتضعضع

أما المرأة فيصعب أن تكتم حزنها ، وأقرب شيء إليها دموعها تسكب معها أحزانها وأشهر الراثيات على مر العصور " الخنساء " تلك التى لم يجد الزمان بمثلها في هذا الفن ولا سيما رثاء الأخوة :

ومن عيون مراثيها قولها :

ياعَيْن جودى بالدمـو ع المُسْتَهِلَّات السوافح (١)

فيضًا كما فاضت غُرو بُ المُتْرَعات من النواضح (٢)

وابكى لصخر إذْ ثَـوى ∴ بين الضَّريحة والصَّفائح (٣)

رَمْسًا لدى جَدَثٍ تذيـ ـعُ بتربه هوجُ النوافح (٤)

---

(١) المستهلات : جمع مستهلة وهى الدمع الذى يشبه المطر لغزارته السوافح : المراقة المسكوبة .

(٢) غروب : جمع غرب وهو : الغربة أو الدلو العظيمة،المترعات : المملوءات وقيل غروب المترعات : حدة مطر السحاب المفعم بالماء،النواضح : جمع ناضحة وكأن السحابة المترعة لكثرة مائها صار الماء ينضح عليها .

(٣) ثوى : أقام . الضريحة : القبر ، أو هو بالتحديد : الأخدود في القبر الصفائح : الحجارة العراض التى توضع فوق القبر .

(٤) هوج الرياح : أى الرياح العنيفة . النوافح : جمع نافحة وهى الرياح الطيبة ـ وكأن تلك الرياح بمرورها على قبر صخر تحولت من هوج إلى نوافح تحمل ريحا طيبة علقت بها من القبر .

السَّيد الجَحْجَاحُ وابـــن   م   السادة الشم الجحاجـــح (١)
الحامل الثقل المهـــم   م   من الملمات الفـــوادح (٢)
الجابر العظم الكســير   م   من المهاصر والممـــانح (٣)
الواهب المائة الهجَـــا   ٭   نَ من الخَنَاذِيذ السوابـــح (٤)

إلى أن تقول :

ذاك الذي كنا بـــه   ٭   نشفى المِراضَ من الجَوانـــح (٥)
ويرد بادرة العـــدو   م   ونخوة الشَّنِفِ المُكاشِـــح (٦)
فأصابنا رَيْبُ الزمـــا   ٭   ن فنالنا منه بِنَاطـــح (٧)
فكأنما أمَّ الزمـــا   ٭   نَ نُحورَنا بِمُدَى الذَّبائـــح (٨)

---

(١) الجحجاح : ضخم الفعال • الشم : الأنف الأباة •
(٢) الملمات : جمع ملمة وهى المصائب • الفوادح : جمع فادحة وهى ثقيلة الوطأة •
(٣) المهاصر والممانح : الأحداث والنوائب التى تميل الرجال وتجذبهم جذبا عنيفا تدق فيه العظام وتبهصر فيه العود •
(٤) الهجان : الكرام من الإبل والخيل • الخناذيذ : الطوال المشرفة من الخيل • السوابح : التى تمد يديها فى الجرى •
(٥) الجوانح : جمع جانحة وهى الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر •
(٦) بادرة العدو : سابقة شره وحدته • النخوة الافتخار والزهو والكبر • الشنف : المبغض الكارة الحاقد • المكاشح : الذى يخفى بغضه حتى تحين له الفرصة •
(٧) بناطح : أى بقوة لا تقاوم ففيها معنى القهر والغلبة •
(٨) مُدَى : جمع مُدْيَة وهى السكين • أمَّ : قصد •

٧ — الغزل :

الغزل والنسيب والتشبيب مترادفات عند أكثر اللغويين وهى كذلك عند معظم النقاد .

يقول ابن رشيق [1] والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد .

وبعض النقاد حاول التفريق بينها كالتبريزي، ولكن الصحيح أنها مترادفات .

وحين نتحدث عن الغزل فإننا نعنى به : ذلك الشعر الذى افتتح به الجاهليون قصائدهم واقفين على أطلال المحبوبة ، متحدثين عنها وعن كل ما يتصل بها ، راجعين بذاكرتهم إلى الأيام الخوالى التى شهدت وصال الحبيبين ثم ما أعقب ذلك من فراق خلّف أسىً ولوعةً وحزنًا .. الخ

وقد احتل الغزل فى العصر الجاهلى مكانا عظيما ، إذ تعارف الشعراء على جعله بدءا لقصائدهم .

والشاعر الجاهلى حين افتتح قصيدته بالغزل قصد إلى ذلك قصدا وكأنه يهيج سامعه ويفتح شهيته .. وأى حديث أشهى إلى النفس وأحلى موقعا فى الأذن من حديث الصبابة ؟ ..

يشير ابن قتيبة إلى ذلك فيقول : [2]

(..... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن النسيب قريب من النفوس ولائط بالقلوب " .

---

(١) العمدة ٢ / ٩٤

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٥

قال امرؤ القيس في معلقته :

أَفاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلُّل ∴ وإن كُنْتِ قد أَزْمَعْتِ صَرْمِي فأَجْمِلي (١)

أَغَرَّكِ مني أَنَّ حُبَّكِ قاتلي ∴ وأَنَّكِ مهما تأمُرِي القلبَ يَفْعَلِ

وإن تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مني خَلِيقَةٌ ∴ فَسُلِّي ثيابي من ثِيابِكِ تَنْسُلِ (٢)

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لِتَضْرِبي ∴ بِسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ (٣)

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها ∴ تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (٤)

تجاوزتُ أَحْرَاسًا إليها ومَعْشَرًا ∴ عليَّ حِرَاصًا لو يُسِرُّون مَقْتَلي (٥)

إذا ما الثُّرَيَّا في السماء تعرَّضَتْ ∴ تَعَرُّضَ أثناء الوشاح المفصَّلِ

فجئتُ وقد نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثيابَها ∴ لدى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المتفضِّلِ

إلى أن يقول :

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ∴ تَرائِبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ (٦)

تَصُدُّ وتُبْدِي عن أَسِيلٍ وتَتَّقي ∴ بناظِرَةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ (٧)

---

(١) صرمي : هجري وقطيعتي .

(٢) الثياب هنا : كناية عن القلب . تنسل : تبين عنها وتفترق

(٣) ذرفت : دمعت . أعشار : قطع . مقتل : مذلل .

(٤) بيضة خدر : أي رب امرأة كأنها بيضة في خدرها — شبهها بها لصفائها ورقتها — لا يرام خباؤها : أي لا يتعرض لها أحد لعزها . والخباء : ما كان على عمودين أو ثلاثة . تمتعت من لهو بها غير معجل : أي وصلت إليها وتمتعت على تمهل غير عجل ولا وجل

(٥) الأحراس : جمع الحرس . حراص : جمع حريص . يسرون : يضمرون .

(٦) المهفهفة : الخفيفة اللحم التي ليست برهلة ولا ضخمة البطن . المفاضة : المسترخية البطن . الترائب : جمع تريبة ، وهو موضع القلادة من الصدر . السجنجل : قطع الفضة وسبائكها ، أو هو ماء الذهب والزعفران .

(٧) تصد وتبدى : أي تعرض عنا وتبدى عن خد أسيل ليس بقبيح . وجرة : اسم موضع . مطفل : أحسن نظرا من غيرها لحسن نظرها إلى طفلها من الرقة والشفقة .

و " إِيَاةُ الشَّمس " شعاعها وضوؤها — يقول : إن هذا الثغر أبيض براق زاد حسنه ضوء الشمس وشعاعها ، وأسنانها بيضاء محددة إذ لم تعض بها شيئا صلبا ، فهي باقية على حدتها ودقة أطرافها ، و " أُسِفَّ " أي ذر عليه . وقوله " لم تَكْدِم عليه بإثمد " فيه كناية عن الغنى والترف ، أو عن عفتها ، فهي لم تأكل سوى اللحم ، فليست بشرهة تلتهم اللحم وتقضم العظم ..

ثم يصف وجهها — في براعة — فيقول : إن الشمس ألقت حسنها وبهجتها عليه حتى صار رداؤه الحسن والجمال ، في لون صاف لم يخالطه اصفرار ولا شيء يشينه " لم يتخَدّد " اى أن جلد الوجه ليس مضطربا ولحمه ليس مسترخيا ، وذلك لأنها في ريعان شبابها وفتاء سنها :

٨ — الاعتذار :

وفارس هذا الفن في الجاهلية — بلا منازع — " النابغة الذبياني " وذلك باعتذارياته للنعمان بن المنذر " تلك التي جاء في إحداها :

أتاني — أَبيْتَ اللَّعْنَ — أنك لُمْتَني ∴ وتلك التي أَهْتَمُّ منها وأَنْصَبُ
فَبِتُّ كأنَّ العَائِدَاتِ فَرَشْنَ لي ∴ هَرَاسًا به يُعْلَى فِرَاشي ويُقْشَبُ (١)
حَلَفْتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ∴ وليس وَرَاءَ اللهِ للمرء مَطْلَبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عني خِيَانَةً ∴ لمبلِغُك الواشي أَغَشُّ وأَكْذَبُ
ولكنني كُنْتُ امرءًا لي جَانِبٌ ∴ من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ (٢)

---

(١) الهراس : الشوك ، يقشب : القشب خلط السم وإصلاحه حتى ينجع في البدن ويعمل ، وكل شيء يخلط به شيء يفسده فقد قشب . وقيل يقشب أي يجدد وهذا أدعى لتعبه .

(٢) مستراد : إقبال وإدبار .

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم ∴ أُحكّم في أموالهم وأقرَّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم ∴ فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنّي بالوعيد كأنّني ∴ إلى الناس مَطليٌّ به القار أجرَبُ
ألم تر أن الله أعطاك سَورةً ∴ ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذبُ
فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ∴ إذا طلعت لم يَبْدُ منهن كوكبُ
ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمّه ∴ على شعَثٍ أيّ الرجال المهذب

ويقول في أخرى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ∴ وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع
خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ ∴ تُمدّ بها أيدٍ إليك نوازع(١)

وقد اعتز النابغة بالبيت الأول " فإنك كالليل " وعده من مفاخره الشعرية إذ قال " لحسان بن ثابت " في سوق عكاظ : يابني إنك لا تحسن أن تقول وأنشد البيت .

٩ — الحكمة :

وهي " غرض من الاغراض التي يوحي بها طول التجارب ، وممارسة الأحداث ، والخلوص منها بنتيجة من النتائج يرضى عنها الناس ويقبلونها لأنهم يرون هذه التجارب في أنفسهم وفي ذويهم وفيمن عرفوا من الناس وفي أحداث الحياة وتقلباتها وتصرفها بالبشر " (٢)

وقد نظر الشاعر العربي في الحياة نظرات ثاقبة ، إذ عاش في بيئة صعبة ، تمرس فيها ، وأصاب منها خبرات واسعة ، أخرجها لنا في قالب شعري يسهل حفظه بالعقل ، وعلوقه في النفس ، ومن ثم ترديده ،

---

(١) حجن : معوجة واحدها : أحجن وحجناء ، نوازع : جواذب .
(٢) معلقات العرب د / بدوى طبانة ص ٣٤٠

على الألسنة وبالتالي خلوده ٠

ولم يقصد الشعراء القدماء إلى الحكمة غرضا أساسيا ، ولكنهم ضمّنوها قصائد اشتملت على أغراض أخرى ٠

ومن الحكمة قول " الخنساء " :

نهين النفوس وهون النفو ... س يوم الكريهة أبقى لها

ومعناه : أن الإقدام في الحرب والشجاعة فيها هو الذى يبقى الحياة ويحفظ للنفس كرامتها ٠

وهو معنى قول الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما

على أن بيت الخنساء أبلغ حين سلكت طريق " المشاكلة " بجعل التقدم فى الحرب إهانة للنفس ثم إطلاقها " يوم الكريهة " وقد يشمل ما سوى الحرب مما جعل المعنى أشمل ٠٠

وهو معنى قول الصديق أبى بكر : إحرص على الموت توهب لك الحياة ٠

أما فارس الحكمة فى العصر الجاهلى فهو " زهير بن أبى سلمى " ٠٠ ومن حِكَمه قوله فى معلقته :

١ — سَئِمتُ تكاليفَ الحَيَاة ومن يَعِشْ
ثَمَانينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

٢ — رأَيْتُ المنايا خَبْطَ عَشْوَاء من تُصِبْ
تُمِتْه ومن تُخْطِئ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ (٢)

(١) تكاليف الحياة : أعباؤها ومشاقها وشدائدها ٠

(٢) المنايا : جمع منية وهى الموت ٠ الخبط : السير على غير هدى والعشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها ليلا ٠

٣ — وأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأَمْسِ قَبْلَــــه
ولكنني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَـــمِ

٤ — ومن لا يُصَانِعْ في أُمُورٍ كَثِــيرَةٍ
يُضَرَّسْ بأَنْيابٍ ويُوطَأْ بِمَنْسِــم (١)

٥ — ومن يَجْعَلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِــه
يَفِرْهُ ، ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْــتَمِ

٦ — ومن يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِــه
على قومِه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَــم

٧ — ومن لا يَزُدْ عن حوضِه بسلاحِــه
يُهَدَّمْ ومن لا يظلمِ الناسَ يُظْلَــم

٨ — ومن هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَــه
ولو رامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّــم

٩ — ومن يُوفِ لا يُذْمَمْ ومن يُفْضِ قلبُــه
إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَــم

١٠ — ومن يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صديقَــه
ومن لا يُكَرِّمْ نفسَه لا يُكَــرَّم

١١ — ومهما تكن عند امرئٍ من خليقــة
ولو خالها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَــم

---

(١) يصانع : يترفق ويداري . يُضَرَّس بأنياب : يمضغ بضرس . المنسم : خف البعير .

حِكَم عظيمة تنم عن موهبة "زهير" الشعرية وعن طول خبرته بالحياة ، وعلمه بكثير من الأمور من خلال هذه السنين التي عاشها ..

١ — يقول في البيت الأول : مللت من مشقات الحياة ومتاعبها وأعبائها الثقال ، ومن عاش ثمانين حولا — مثلي — فإنه سيسأم مثل سأمي

٢ — وينظر إلى الموت فيجده لا يقصد إلى الضاربين في العمر فقط بل قد يقصد إلى رضيع أو إلى شاب ، وهو في ذلك كالناقة التي تخبط خبط عشواء لا تدري أين تضع قدميها

٣ — وإنني أعلم من الماضي ما أعلم ولكنني لا أعلم ما في غد .

٤ — من لا يترفق بالناس ، ويداريهم فإنه لا يستطيع العيش وسطهم اذ سيقتله الناس يأكلونه بأسنانهم ويطأونه بأقدامهم .

٥ — وعلى من يريد ان يصون عرضه ويبقيه أن يبذل المعروف ، ومن أساء معاملة الناس وعرّض نفسه لشتمهم شتموه ، فكان جانيا على نفسه .

٦ — وإن صاحب الجاه والمال والثراء العريض الذي يفيض ماله عن حاجته ، ثم لا يفيد أهله وأقاربه من هذا الفضل فإنه لا حاجة لهم فيه ، ولا قيمة له عندهم ، وسوف يذمونه وهو مستحق ذلك .

٧ — ومن لا يدافع عن حماه وعرضه بنفسه وسيفه فإن حماه مهدوم وشرفه ضائع .

ومن لم يكن ظالما كان مظلوما " .. (هي دعوى جاهلية بلا شك تتنافى وأخلاق الإسلام الذي دعا إلى العدل والحق . وهذا مما يدل على جاهلية هذا الشعر .

٨ — والذي يخشى الوقوع فيما يؤدي إلى الموت لابد أن يدركه الموت ولو صعد السماء بسلم . وهذا يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككم الموتُ ولَوْ كُنتم فى بُروجٍ مُشَيَّدَة " .

٩ — ومن حافظ على عهده ووفى به لا يصيبه ذم ، ومن كان في صدره بر قد اطمأن وسكن — ليس ببر يرجف ولم يطمئن — " لم يتجمجم "أى لم يتردد وإنما أمضى كل أمر على جهته . وليس كمن يريد غدرًا فهو يتردد في أمره ويتثنى .

١٠ — ومن كان غريبا في مكان ما فإنه لا يستطيع تمييز العدو من الصديق ، لأنه لم يختبر العدو من الصديق . ومن لا يكرم نفسه فلن يجد لها من دونه مكرما . فمن هانت عليه نفسه هان على الناس .

١١ — وإن من حاول التكلف والظهور بما ليس فيه من خلال طيبة ، وإخفاء ما فيه من خصال السوء وهو يظن أنه لن يكتشف أمره ويظهر مخبره — فانه لابد أن ينكشف أمره لأن الطبع غالب كما يقولون ..

وتتضح شخصية زهير في هذا النص وضوحا كبيرا .

* فهو رجل محنك خبير بالناس وطبائعهم وصفاتهم .
* كما يتضح أنه يقر بعض الأعراف الجاهلية رغم خطئها وذلك مثل قوله " ومن لا يظلم الناس يظلم " .
* وفي النص كثير من صفات وأخلاق الجاهليين .

أما من حيث اسلوبه فإنه ينبغي الإشارة إلى أنه كان ممن يهتمون بالقصيدة اهتماما بالغا ، فيهذبها وينقحها ، وتستغرق منه حولا كاملا وهذا يعطيه فرصة لحذف ما لا يروقه وإدخال ما يضيف الرونق والأبهة

والجمال . وكل هذا واضح في الأبيات ومن هنا اختيرت ضمن عيون الشعر العربي " المعلقات " .

* والحكمة في المعلقة كانت غرضا أساسيا إلى جانب الوقوف بالأطلال والغزل — ثم المدح والتنديد بالحرب وويلاتها — ثم الحكمة .

خصائص الشعر الجاهلـــــى

أولا : من حيث الألفاظ والأساليب :

* تغلب على ألفاظ الشعر الجاهلى القوة والجزالة ولا سيما فى معـــرض الحماسة والفخر ووصف الحيوان والطرق الموحشةوما شابه ذلك .

أما فى الغزل فالألفاظ فيها رقة ولطف ..

* وتكثر فى الشعر الجاهلى الألفاظ الغريبة التى نضطر إلى الرجـــوع بها الى المعاجم اللغوية ليتسنى لنا فهم ذلك الشعر ، وذلك نظراً لطول العهد بيننا وبين عصرهم .

* ألفاظ الشعر الجاهلى عربية خالصة ، ويندر أن تجد فيها لفظا أعجميا اللهم إلا شعر الأعشى الذى استعمل كثيرا من الألفاظ الأعجمية نظـــرا لنزوله بلاد العجم كثيرا .

* عُنى الجاهليون باختيار ألفاظهم بدقة ، وبالغ بعضهم فى التنقيـح والتهذيب والصقل واستغرقت القصيدة منه وقتا طويلا قد يقرب من عــام ومن أشهر هؤلاء " زهير " صاحب الحوليات .

ومن هنا لقبوا بعض الشعراء بألقاب تدل على هذا التنميق والتحسين فقالوا : " المُهَلْهِل " لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقّهـــا "والمرقّش" لتحسينه شعره وتنميقه ، "والمُحَبّر" لتزيينه شعره وعلقمة "الفحـــل" لجودة أشعاره .. الخ (1)

(1) راجع الأغانى (دار) ٥/٦٧ ، العصر الجاهلى شوقى ضيف ٢٢٧ فى الأدب الجاهلى / على الجندى ٤٥٣ .

* وقد استعملوا الألفاظ في معانيها الحقيقية ، إلا ما كان في الوصف والغزل وبعض المدائح فسلكوا طريق المجاز أحيانا .

* وقد استعانوا بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية للتأثير في السامعين، وأكثر صورهم الشعرية قائمة على التشبيه لأن فيه من الملاءمة والتناسب مع البيئة ما ليس في غيره من الوسائل البيانية الأخرى ، فهو وسيلة سهلة واضحة تتناسب مع وضوح البيئة وبساطتها فهو يشخص المعنى ويمثله تمثيلا . (١)

وهم حين يلجأون إلى التشبيه يقصدون منه : المبالغة ، ولا سيما في شعر الحرب فمثلا يشبهون الجيش بالسحاب المتراكم ليرهبوا الخصوم .

وقد يقصدون منه التأكيد أو البيان والتوضيح . إلخ

كما تجد من وسائل تصويرهم الاستعارة كما في قول امرىء القيس عن الليل :

فقلتُ له لمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وأَرْدَفَ أَعْجَازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ (٢)

وفي شعرهم الكناية وإن كانت أقل الألوان البيانية حظا في الاستخدام ومن كنايتهم عن المرأة : (٣)

ويُضْحي فتيتُ المسك فوق فراشها ... نَؤُومُ الضحى لم تنتطق عن تفضل

كناية عن الغنى والرفاهية وأنها مخدومة . .

كما استخدموا من الألوان البديعية الطباق والجناس وغيرهما ، ولكن هذه الألوان جاءت عفو الخاطر دون كد ذهن أو تكلف سقوط .

---

(١) راجع / الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف ٤٥، ١٥٢

(٢) ، (٣) البيتان من معلقة أمرىء القيس .

* ومن أبرز خصائص الشعر الجاهلي الإيجاز فالشاعر يتحرى الدقة في التعبير ويتحاشى الإطناب وفضول الكلام .

ثانيا : من حيث المعاني والافكار :

اتسمت المعاني بعدة سمات منها :

١ ـ الواقعية :

فقد عكس الشاعر الجاهلي في شعره صورة الحياة من حوله ، من أرض يعيش عليها ، وأخرى ظعن منها ، ودَوِّيةٍ قفر مهلكة ، وسهل وجبل .. ووصف الظواهر المناخية من برق ورعد وسحاب وسيل ، وتتبع رحلة المطر وغزارته حتى صار سيلا أهلك الضرع ودمر الزرع .
واهتم بالحيوان الذي كان عماد حياته ، فوصف الفرس والناقة ، وسرعتهما ، متناولا نعت أعضائها بدقة وبراعة ..

وكان من أبرز مظاهر هذه الواقعية ذكر الشاعر الجاهلي المواضع التي تقع فيها الأطلال ، محدِّدًا معالم المواضع تحديدا دقيقا ومن هنا استعان المؤرخون بهذا الشعر في تقرير الحقائق التاريخية للعصر الجاهلي ، واعتمد الجغرافيون وأصحاب معاجم البلدان على هذا الشعر في رسم أبعاد الأماكن وتحديد جوانبها ، وفي أسماء الجبال والمياه والآبار ... الخ .

٢ ـ الفطرية والوضوح :

فالمعاني واضحة بسيطة " تلائم الفطرة وتنسجم وطبيعة المجتمع البدوي ، ولا شك أن البساطة والوضوح أثران من آثار البيئة صفاء

الذهن واعتدال المزاج ، وهما يدلان على عقلية هادئة مستقرة لا اضطراب فيها ولا قلق ، فلا غموض ولا تفلسف .. فجاءت معانيهم واضحة بسيطة ، لأنها عالجت حياة بسيطة واضحة بعيدة عن الحضارة — إلا قليلا "(١)
وهذه الواقعية وذلك الوضوح أدّيا إلى الصدق .

٣ — الصدق :

فقد نقل الجاهليون الواقع نقلا أمينا لا مبالغة فيه ولا إسـراف وقد تجلى هذا الصدق في :

أ) معرض الحديث عن الحرب لم يكن الشاعر يتجاوز الحق — غالبا — فيظلم خصمه ، بل على العكس أشاد بشجاعة العدو ، وأثنى على بسالته ، وأنصفه من نفسه في قصائد سميت " المنصفات "(٢)

ومن هذه المنصفات قصيدة العباس بن مرداس التي يقول فيها :

فلم أرَ مِثْلَ الحَيِّ حَيًّا مُصَبَّحًا ∴ ولا مِثْلَنَا لَمَّا الْتَقَيْنَا فوارِسَا
أَكَرَّ وأَحْمَى للحقيقة منهمُ ∴ وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيُوفِ القوانِسا
وأَحْصَنَنَا منهم فما يَبْلُغُونَنا ∴ فوارِسُ منا يَحْبِسُونَ المَحَابِسا
إذا ما شَدَدْنا شَدَّةً نَصَبُوا لها ∴ صُدُورَ المَذَاكِي والرِّمَاحَ المَدَاعِسا

ب) ومن مظاهر هذا الصدق أنهم لم يخفوا نقاط الضعف أو المعايب من قومهم بل كانوا يتحدثون عنها ويظهرونها .

---

(١) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه د / يحيى الجبوري ١٩٩ — ٢٠٠
(٢) ديوانه . القصيدة رقم ٢٠

ج) وقد بلغوا من الصدق أن الفارّ الهارب من المعركة قد يسجل فراره وهروبه فى شعره ، حتى إن بعضهم لقب بـ " الفَرّار " لشعرٍ قاله فى فراره .

٤ ـ غلبة الجانب الحسى :

وقد ذهب أكثر النقاد [1] إلى تعميم الحكم بالحسية على الشعر الجاهلى كله . والحق أن الحسية غالبة فقط .. وهناك من الشعر الجاهلى ما صور النفس وتغلغل داخلها ، وغاص فى أعماقها .. ولم يكتفوا بالالتفات إلى الحيوان من ظاهره فى شكله وسرعته وقوته .

فانظر هذا الشعر وهل يجوز أن نصفه بالحسية أيضا ؟ !

تقول الخنساء :

وما عَجُولٌ على بَوٍّ تُطيفُ بـه ∴ لها حنينان إعْلانٌ وإسْرَار
ترتَعُ ما رَتَعَتْ حتّى إذا ادّكَرَتْ ∴ فإنما هى إقْبال وإدْبَار
لا تَسْمن الدّهْرَ فى أرض وإن رَتَعَتْ ∴ فإنما هى تَحْنَانٌ وتَسْجَار
يومًا بأوْجَدَ منى يوم فارقنى ∴ صخرٌ وللدهر إحلاء وإمْرَار

فقد نظرت الشاعرة إلى أفعال الناقة الظاهرة ، ونفذت إلى نفسها من خلال هذا الظاهر فوضعت يدها على موضع الحزن فيها وتغلغلت

---

(1) راجع مثلا : العصر الجاهلى / شوقى ضيف ص ٢٢٠ ، فى الشعر الجاهلى / على الجندى ص ٤٤٨ ، الوصف فى الشعر العربى عبد العظيم قناوى ١٠٢ ، فجر الإسلام / أحمد أمين ٦٠ ، الأدب وفنونه / عز الدين اسماعيل ، فن الوصف / إيليا حاوى .

داخلها لترى أثر الصدمة ظاهرا كل مرة بعد اكتشافها أنها صارت ثكلى ، فقد فقدت ابنها ..

ثم لم تكتف الخنساء بذلك فقط ، بل إنها ذكرت أنها لن تسمن أبدا ولين رتعت الدهر في مرتّع ذى كلأ وفير ، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى تعمقها داخل نفس هذه الناقة .. وهناك أمثلة أخرى لتصوير نفس الحيوان والوقوف أمامه للتأمل فى كل أحواله الظاهرة والتغلغل داخل أعماقه زخرت بها مصادر الشعر الجاهلى .(١)

إذًا : ليس من الدقة أن نعمم الحكم بالحسية على الشعر الجاهلى كله. وإنما نقول إن معظمه قد غلب عليه الجانب الحسى .

ثالثا : من حيث بناء القصيدة :

اصطلح الجاهليون على بناء لقصيدتهم لايكادون يخرجون عنه .. يقول ابن قتيبة :(٢) " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها .... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة

---

(١) راجع مثلا : قول عمرو بن معد يكرب فى النوق/الأصمعيات ٦١ / ١٧٦ وقول متمم بن نويره فى النوق أيضا / شرح المفضليات ٢ / ٩٦٦ — ٩٦٧ ، وقول دريد بن الصمه فى " ذات البَوّ " الأصمعيات ١٠٩

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٤ ، ٧٥

والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النَّصَب والسهر ، وسُرَى الليل ، وحرّ الهجير .. " إلخ

هذا هو منهج الجاهليين في بناء القصيدة ، والخط الذى رسموه لأنفسهم باستثناء طائفة الصعاليك ..

ومعنى هذا أن الوحدة الموضوعية غير متحققة في القصيدة الجاهلية فهي متعددة الموضوعات .

أما الوحدة العضوية فقد فطنوا إليها ، وتحققت في شعرهم فالتسلسل في القصيدة منطقي وليس هناك قطيعة بين أفكارها ، وقد أحسنوا التخلص والانتقال من غرض إلى آخر .. حتى انتهوا إلى ختم القصيدة ختمًا محكمًا .

الفصل الخامس :
التراجم

التراجـــــم

١ ــ شاعر من مدرسة المعلقـــــات

عنترة العبسي

هو(1) : عنترة بن عمرو بن شداد بن قراد بن مخزوم بن عوف بن مالك من عبس .. أحد أغربة العرب وهم ثلاثة (عنترة ، خفاف بن ندبة السُّليك بن السلكة)

أمه حبشية يقال لها زبيبة . وكان له منها إخوة عبيد .

وعيّره أحد بني عبس بسواده وأمه وإخوته فقال " عنترة " رادًّا عليه : إني لأحتضر البأس وأوفي المَغْنَم ، وأعفّ عن المسألة ، وأجود بما ملكتُ ، وأفصل الخُطَّة الصَّمْعَاء (يعني الدقيقة اللطيفة) . قال له الرجل أنا أشعر منك قال ستعلم ذلك .

وظل عنترة عبدًا لم يعترف به أبوه حتى أغار بعض أحياء العرب على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فتعرض لهم العبسيون وبينهم عنترة فقال له أبوه " كر يا عنترة " فقال : العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلابَ والصَّر فقال أبوه : كر وأنت حر .

فقاتل عنترة قتالا شديدا ، واستنقذ الإبل من الأعداء فاعترف به أبوه ونسبه إليه .

منزلته بين النقاد :

يعده الأصمعي من أشعر الفرسان ، وهو من فحول الطبقة السادسة

---

(1) ترجمته وأخباره في الشعر والشعراء ١ / ١٥٠ والأغاني (دار) ٨ / ٢٣٧ ، شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ٢٩٣ وغيرها .

من شعراء الجاهلية عند ابن سلام . وعده المفضل الضبي من الفحول وجعله أبو عبيدة في الطبقة الثالثة مع المرقش الأكبر وكعب بن زهير والحطيئة وغيرهم .

وليس أدل على جودة شعره ، ورفعة منزلته من أنه من أصحاب المعلقات

* المرأة في حياته :

للمرأة في حياة عنترة وشاعريته أثر كبير :

* أمه : رأى عنترة أمه ، مستذَلَّة ، مملوكة ، فرثى لحالها وتأثر لوضعها وهذا له تأثير ضخم على حياة الابن .

* زوجة أبيه : وقد اتهمته بأنه راودها عن نفسها ، وكان ذلك قبل أن يدعيه أبوه ، فأخذه أبوه وضربه ضربًا مبرّحا ، فلما رأت زوجة أبيه ما به من الجراح رقت لحاله ، وبكت فقال عنترة في ذلك :

أمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العين مَذْرُوف ∴ لو انّ ذا منك قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدّت ما تكلمني ∴ ظبيٌ بعسفان ساجي الطرف مطروف
تَجَلَّلتني ان أهوى العصى قبلي ∴ كأنها صنمٌ يُعْتَادُ مَعْكُوفُ
المالُ مالُكمُ والْعَبْدُ عَبْدُكُمُ ∴ فَهَلْ عذابُك عني اليومَ مصروف
تنسى بلائي إذا ما غَارَةٌ لقحت ∴ تخرج منها الطوالات السَّراعيف

* أما المرأة الثالثة فقد كان لها أكبر التأثير في شعره وفروسيته إنها " عبلة " ابنة عمه ، تلك التي أحبها ، وطلب الزواج منها إلا أن عمه رفض أن يزوج ابنته عبدا ، فكان هذا الرفض حافزا لعنترة لإثبات أنه ليس بأقل من الأحرار إن لم يكن أحسن منهم وأرفع قدرا ، كان هذا مثيرا له ولشاعريته ، ولاعتزازه بنفسه ، وتغنّيه بعد ذلك بالفضائل النفسية من شجاعة ونجدة ومروءة وعفة ... الخ وقد اختلفوا فيما إذا كان تزوج عبلة

بعد تحرره أم لا ..

* والمرأة الرابعة : وهى من بجيلة ، جاء ذكر لها فى شعره يقال إنه تزوجها ، ويقال : إنه لم يتزوج وإنما كان مشغولا بالحروب حتى عشق المعارك وحديث المعارك لدرجة أنه تغزل فى أدوات الحرب .

وقد شهد حرب داحس والغبراء ، وأبلى فيها بلاء عظيما .

من مشهور شعره الذى أعجب به النقاد قوله الذى سبق إليه ولم ينازع فيه : (من المعلقة)

وَخَلا الذُّبابُ بها فليس ببارح ∴ غَرِدًا كفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعه بذراعه ∴ فعل المكبِّ على الزناد الأَجْذَمِ

قال ابن قتيبة وهذا من أحسن التشبيه .

وقولـه :

وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ ∴ مالى وعِرْضى وافرٌ لم يكلم
وإذا صَحَوتُ فما أقصِّرُ عن نَدًى ∴ وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقوله :

إنى امرؤ من خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا ∴ شطرى وأحمى سائرى بالمُنْصُلِ
وإذا الكتيبةُ أحجمت وتلاحظت ∴ أُلْفِيتُ خَيْرًا من مُعَمٍّ مُخْوَلِ

يقول : النصف من نسبى من خير عبس ، وأحمى النصف الآخر ، وهو نسبه فى السودان بالسيف ، فأشرّفه أيضا .

وفاته :

قيل إنه قتل رميًا بسهم ، رماه به رجل من طيء، وقيل غير ذلك .

معلقة عنترة

سبب إنشادها :

روى أن أحد بني قومه عيّره — كما سبق — فكان فيما قال له : أنا أشعر منك. قال عنترة : ستعلم .

فكان أول ما قال قصيدة " هل غادر الشعراء من متردم " — المعلقة .

وهذا الخبر غير معقول فهو يوحي بأن عنترة قد ارتجل هذه المعلقة ارتجالا بسبب مقال ذلك الرجل ، على سبيل التحدي .

ولا يتأتى أبدا أن يصل شعر شاعر مبتدئ — فضلا عن أنه مرتجل — هذه الدرجة من طول النفس ، والجودة ، والإتقان ، والإبداع الفني ..

وإنما يدل على أن صاحبه قد راض نفسه طويلا على تلك الصناعة حتى بلغ من النضج الفني قدرا عظيما هو ما نرى صورته في هذه الرائعة، إذًا الرواية غير مقبولة .

عدد أبيات المعلقة :

اختُلف في عددها، فبعضهم يوردها تسعة وسبعين ، وبعضهم يوردها ثمانين، وآخرون رووها واحدًا وتسعين بيتا .

وقد بدأها عنترة بقوله :

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ ∴ أم هل عَرفتَ الدارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ (١)

أى أنّ الشعراء السابقين لم يتركوا مجالا لشاعر من بعدهم يطرقه ، فماذا هو قائل ؟ ثم أكمل المطلع بذكر الديار التى عرفها بعد توهم .

ثم أخذ فى مخاطبة ديار الحبيبة " عبلة " وحياها ، واستنطقها علّها تجيبه جوابًا يشفى حر قلبه ، وهو لا يريد سوى معرفة مكان الحل .

ثم وصف حبه لها ، وذكر أسباب هيامه بها ، التى منها : جمال فمها وبياض أسنانها ، وطيب رائحة الفم ... إلخ يقول :

إذ تستبيكَ بذِى غُرُوبٍ واضِحٍ ∴ عَذْبٍ مُقَبَّلُه ، لذيذِ المَطْعَمِ (٢)

وكأنّ فَأْرَةَ تاجِرٍ بقسيمةٍ ∴ سَبَقَتْ عوارضَها إليك من الفم (٣)

ثم وازن بين حاله وحالها ، وكيف أنها تعيش منعّمة مرفهة ، بينما هو فى معاناة ، إذ يعيش محاربا .. وبعد ذلك أخذ فى وصف الناقة فاستغرق منه ثلاثة عشر بيتا ، إلى أن يصل الى الفخر بنفسه وهو الغرض الغالب على المعلقة ..

وقد بدأه بوصف الفرس الذى يخوض به غمرات الحروب ، وكان بارعا فى هذا الوصف ثم أطال وصف بلائه فى الحروب وعاد لذكر الفرس مرة أخرى .

وهاك أبياتا له من هذا الفخر بنفسه .

---

(١) المتردم : الذى يحتاج الى إصلاح ، وقيل هو من التردم ، كالترنّم وزنا ومعنى .

(٢) تستبيك : تأسر عقلك وتذهب به بذى غروب : بثغر ذى غروب ، وغروب الاسنان حدها ، واضح : ابيض . عذب : بارد .

(٣) فارة تاجر : اى عطار قسيمة : حسنة ، يقول : كأن فارة مسك انتك ريحها من فم هذه المرأة قبل أن تدنو منها فتقبلها أو تدنو من عارضها .

يقول عنترة :-

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِي ∴ سَمْحٌ مُخَالَطَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ (١)
فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ ∴ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ (٢)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا ∴ رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ (٣)
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ∴ قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشِّمَالِ مُفَدَّمِ (٤)
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ∴ مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ (٥)
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى ∴ وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي (٦)
وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلًا ∴ تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ (٧)
سَبَقَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ ∴ وَرَشَاشِ نَافِذَةٍ كَلَوْنِ الْعَنْدَمِ (٨)

---

(١) الثناء : المدح · سمح مخالطتى : سهل العشرة ·
(٢) باسل : كريه
(٣) المدامة : الخمر ، سميت بذلك لأنها أُديمت فى الدن · ركد : سكن - يقول : شربت من الخمر بعد ركود الهواجر ، اى حين ركدت الشمس ووقفت وقام كل شئ على ظله · المشوق : الدينار المجلوّ · المُعْلَم : الذى فيه كتاب · وأراد بالمشوف المعلم : أنه شرب خمرا ببعير ·
(٤) ذات أسرة : ذات طرائق وخطوط وتكسر — قرنت بأزهر : أى جعلت مع إبريق أزهر وهو الأبيض - مُفَدَّم : عليه مصفاة ، أو مشدود فمه بخرقة
(٥) يقول لعبلة : إننى سخى كريم فى الحالتين جميعا ، فى الصحو والسكر وأن الخمر لا تحل منه شيئا ممنوعا ·
(٦) صَحَوْتُ : ذَهَبَ سُكْرِى · النَّدى : الخير والمعروف · الشمائل:الأخلاق ·
(٧) الحَلِيل : الزوج · الغانية : المرأة ذات الزوج المستغنية بزوجها ، ثم قيل للشابة غانية سواء كانت ذات زوج أم لم تكن · تمكو فريصته · والفريصة : المضغة التى فى مرجع الكتف ، ترعد من الدابة إذا فزع ، وإنما خص الفريصة لانها اذا طعنت هجمت الطعنة على القلب فمات الرجل ، فأخبر عن حذقه بالطعن وأنه لا يطعن إلا فى المقاتل وقلبه محسه · كشدق الأعلم : شدق الجمل وكل بعير أعلم لأن مشفره الأعلى مشقوق · (٨) سبقت يداى : عجلت إليه بالطعنة · الرشاش : ما =

هَلَّا سَأَلْتِ الْخَيْلَ يا ابْنَةَ مَالِكٍ ∴ إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تعلمي (١)
إِذْ لَا أَزَالُ على رِحَالَةِ سَابِحٍ ∴ نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الْكُمَاةُ مُكَلَّمِ (٢)
طَوْرًا يُجَرَّدُ لِلطِّعَانِ ، وَتَارَةً ∴ يأوِى إلى حَصِدِ الْقِسِيِّ عَرَمْرَمِ (٣)
يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعةَ أنَّنى ∴ أَغْشَى الْوَغَى وأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
فأرى مغانِمَ لو أَشَاءُ حَوَيْتُهَا ∴ فيصُدُّنى عنها الْحَيَا وتَكَرُّمى
ولقد ذكرتكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ ∴ منى ، وبيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ من دمى
فوددتُّ تقبيلَ السُّيوفِ لأنها ∴ لَمَعَتْ كبارقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ
وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاةُ نِزَالَهُ ∴ لا مُمْعِنٍ هربًا ولا مُسْتَسْلِمِ (٤)
جادَتْ له كفى بعاجِلِ طَعْنَةٍ ∴ بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوَّمِ (٥)
برحيبةِ الْفَرْغَيْنِ يَهْدى جَرْسُهَا ∴ باللَّيلِ مُعْتَسَّ الذِّئابِ الضُّرَّمِ (٦)
فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ∴ ليسَ الكريمُ على الْقَنَا بِمُحَرَّمِ (٧)

تطاير وتفرق من الدم • النافذة : التى نفذت إلى الجوف • العندم صبغ أحمر •

(١) سألت الخيل : أى ركاب الخيل •

(٢) الرحالة : سرج كان يُعمل من جلود الشاء بأصوافها يتخذ للجرى الشديد • السابح من الخيل : الذى يعدو ويديه لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيرا . نهد : غليظ ، تعاوره الكماة : يطعنه ذا مرة وذا مرة . الكماة : جمع كَمِىّ وهو الشجاع • مُكلّم : مجرح •

(٣) يجرد : يبرز • حصد القسى : جيش كثير القسى . عرمرم : شديد أو كثير •

(٤) مدجج : متوارى بالسلاح •

(٥) مثقف : مصلح مقوم • الكعوب : عُقد الأنابيب • الصدق : الصلب •

(٦) رحيبة الفرغين : الدلو الواسعة • الجرس : الصوت • المعتس : من الذئاب وغيرها — المتبقى الطالب الضرم : الجياع •

(٧) شككت : طعنت • ثيابه : كناية عن قلبه • ليس الكريم على القنا : =

فَتَركتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ ∴ يَقْضِمْنَ حُسْنَ بنانِهِ والمِعْصَمِ (١)

ومِسَكِّ سابِغَةٍ هتكتُ فُروجَهـا ∴ بالسَّيفِ عن حامِي الحقيقةِ مُعْلِمِ (٢)

رَبِذٍ يَداهُ بالقِداحِ إذا شَتَـا ∴ هَتَّاكِ غاياتِ التِّجارِ مُلَوَّمِ (٣)

لمَّا رآني قد نزلتُ أُريـدُهُ ∴ أبْدَى نَواجذَه لغيرِ تبسُّمِ (٤)

فطَعَنْتُه بالرُّمحِ ثم عَلَوْتُـه ∴ بِمُهَنَّدٍ صافي الحديدةِ مِخْذَمِ (٥)

عهدي به مَدَّ النهارِ كأنَّمـا ∴ خُضِبَ البَنانُ ورأسُهُ بالعِظْلِمِ (٦)

بَطَلٍ كأن ثيابه في سَرْحَـةٍ ∴ يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ لَيْسَ بتوأمِ (٧)

= بمُحَرَّم : أي لم يمنعه من أن يقتل بالقنا كرمه .

(١) يقول : تركت قتيلي طعاما للسباع يتناولنه بالأكل . .

(٢) المِسَكّ : هو ما شُدَّ بمسمار . والسابِغَة : الدرع الطويلة التامة . هُتِكَتْ : قُطِعَتْ وخرقت.الحقيقة : ما يحق عليه أن يمنعه ويحميه.مُعْلِم معروف .

(٣) رَبِذ : سريع الضرب بالقداح . شَتَا : أي في البرد . هتّاك غايات التجار : أي يأتي الخمّارين فيشتري كل ما عندهم من الخمر فيقلعون راياتهم ويذهبون.وكان أصحاب الخمر إذا نزلوا رفعوا راية ليعرفوا بها.والراية هي الغاية فلا يقلعونها حتى تشترى خمرهم جمعا.ملوّم: معذل يلام على إنفاق ماله في الفتوة . .

(٤) النواجذ : آخر الأضراس .

(٥) المُهَنَّد : نسبة الى الهند . المِخْذَم من السيوف : الذي ينتسف القطعة أي يرمي بها .

(٦) مدّ النهار : أوله . العِظْلم : شجرة لها ورق يختضب .

(٧) يقول هو طويل من الرجال تام فكأن ثيابه التي هي عليه إنما هي على سرحة من طوله.يحذى نعال السبت : ليس براعي إبل فيلبس جلد القطير.والسِّبْت : جلود البقر إذا دبغت بالقرظ.ليس بتوأم : اي لم يزاحمه أحد في بطن أمه ولذلك خرج طويلا غير ضعيف .

إلى أن يقول :

لما رَأَيْتُ القَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُم ∴ يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّم
يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرما كأنَّها ∴ أَشْطَانُ بِئْرٍ فى لَبَانِ الأَدْهَم
مازِلْتُ أرميهم بثُغْرةِ نَحْرِه ∴ ولَبَانِه حتى تَسَرْبَل بالدَّم
فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِه ∴ وشَكَا إلىَّ بِعَبْرَة وتَحَمْحُم
لوكان يَدْرِى ما المُحَاورة اشْتَكى ∴ ولَكَانَ لو عَلِمَ الكَلَامَ مُكَلِّمى
ولقَدْ شَفَى نَفْسى وأَبْرَأَ سُقْمَها قِيلُ الفوارس وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِم
والخَيْلُ تَقْتَحِمُ الخَبَارَ عَوابسًا ما بَيْنَ شَيْظَمَةٍ وأَجْرَدَ شَيْظَمِ (٢)

---

(١) يتذامرون : يحرض بعضهم بعضا .

(٢) الخبار : الأرض اللينة ذات الحجرة والجرفة . الشيظم : الطويل .
الأجرد : القصير الشعر .

* التعليق :

في شعر عنترة — عموما — والمعلقة — خصوصا — تصوير لجانب من الأخلاق الجاهلية .

وفي المعلقة تصوير للفروسية في العصر الجاهلي ، فهي ليست فروسية حَرْبِيَّة فحسب ، وإنما فروسية خلقية سامية .

ففارسنا هنا سهل العشرة ، لين الجانب ، شريطة ألا يظلم ، فإذا ظُلم فإنه يتحول إلى إعصار مهلك مدمر ، وذلك لأنه لا يحتمل الظلم ، ولا يرضى الضيم .

وهو وإن كان يشرب الخمر ، الا أنه يجود بماله في سكره ، ولكن عرضه لا يخدش ، ولا تفسد مروءته ، وأما في صحوه فإنه لا يتوانى عن بذل وعطاء .

وهو يدخل الوغى غير هَيَّاب ولا وجل ، ويجابه الأخطار لأغراض سامية لا طمعًا في مغنم أو جريا وراء نزوة ، وإنما بدافع العزة والكرامة والإباء ..
وهو عف نبيل ، يقتل زوج الغانية الصنديد ولا ينتهز فرصة غياب الحليل فيمسها بسوء .

وتنم المعلقة عن حبه الإنصاف ، حين يرفع قدر خصمه بالكرم في قوله :
فشَكَكْتُ بالرمح الأَصَمِّ ثيابَــه ∴ ليس الكريم على القَنَا بِمُحَــرَّمِ
وهذا أمر محمود ، وقد جاء كثيرا في العصر الجاهلي ، فهناك القصائد المنصفات التي تنصف العدو وتعطيه حقه ، وتصف شدة بلائه وقوته .

وعنترة عاشق لأدوات الحرب بداية من الفرس " الأدهم " .. فقد غاص داخل نفسه ، وصور معاناته وقت المعمعة ، ووصف آلامه وجروحه إذ يقول :

فازوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بلَبَانـــه ∴ وشَكَا إليَّ بعَبْرَةٍ وتحمحـــم

لو كان يدرى ما المحاورةُ اشتكى ∴ ولكان لو عَلِمَ الكلام مكلمّـــى

ويصور هذا الشعر مدى الحبّ من عنترة لفرسه ، ومن هنا أحس به ، وشعر ما بداخله .

ونجد أيضا حبه للسيف الذى وجد فيه شبها بينه وبين حبيبته حين يقول :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نَوَاهِـــلٌ ∴ منى وبيضُ الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنهـــا ∴ لمعت كبارق ثغرك المتبســم

وعنترة لأنه فارس غير عادى فهو يعمد إلى الفرسان من أشراف الخصوم فيصرعهم وقد جاء ذلك فى المعلقة فى مشهدين يقول فى أحدهما :-

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجَـــدَّلاً ∴ تَمْكُو فريصتَه كشدق الأعْلَـــم

سبقت يداى له بعاجل طعنـــةٍ ∴ ورَشَاشِ نافذة كلون العنْـــدَم

وفى المشهد الآخر يصف لنا كيف كان خصمه مدججا بالسلاح حتى تحاشاه المقاتلون خوفا منه ، إلا أن عنترة سابقه بطعنة نجلاء ، أرْدَتْه قتيلا ، وصار لحما للسباع ..

فتركته جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَـــه ∴ يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ والمعصــم

وعنترة يصور نفسه أشجع قومه ، وليس أدل على ذلك من أنهم حين تشتد رحى الحرب فيسرعون لدعوته كى ينجدهم .. وقد جاء ذلك فى بيت غاية فى الجمال :

ولقد شَفَى نَفْسى وَأَبْرأَ سُقْمَهـــا ∴ قيلُ الفَوارسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْـــدم

انظر إلى قوله : ويك عنتر أقدم ، وهذا الإيجاز الشديد الذى يوحى بمـــدى خطورة المعركة ، وأن الهزيمة تكاد تحدق بهم ، ولذلك فلا وقت عندهـــم لكى يطيلوا الكلام عن طريق حروف النداء " ياعنتر " ثم التفصيل فـــى بيان هدف دعوتهم إياه ٠٠ إلخ فقد وفق الشاعر توفيقا كبيرا ليريك كيف كان الموقف بالنسبة إلى قومه إلى أن جاء عنترة فقلب المعركة رأسا على عقـــب وحول الهزيمة إلى نصر ٠

ومفردات القصيدة سهلة ، والألفاظ الغريبة فيها قليلة ، وقد أحسن اختيار الألفاظ التى تناسب الموضوع ولاسيما حين يتحدث عن لقاء الأبطال .

* وتتحقق فى القصيدة الحبكة ، وتتسلسل الأفكار فيها فى تتابع مرتـــب ٠
* وشعره متين البناء وهو يعمد — غالبا — إلى التفصيل ٠
* ويتسم بالبساطة وعدم التكلف فى إيراد الصور البلاغية ٠
* تتجلى فى شعره عموما ظاهرة التشخيص كما فى حديثه عن الأدهم :

فازورَّ من وقع القنا بلبـــــانه ∴ وشكا إلىَّ بعَبْرَةٍ وتَحَمْحُـــــم

وقوله :

طورًا يجرد للطعان وتـــارة ∴ يأوى الى حَصَدِ القسى عرمـــرم

وما قلناه عن الخصائص الفنية فى المعلقة يكاد يصدق على كـــل شعره ٠

٢ — من مدرسة الشعراء الصعاليك (١)

الصعاليك : جمع صعلوك .. وهو فى اللغة — الفقير الذى لا يملك ما يعينه على أعباء الحياة.وقيل إن أصل المادة يدور حول الضمور والانجراد . وتطلق كلمة الصعاليك — عند أهل الأدب — على فئة من الفقراء احترفوا السلوك العدوانى بقصد المغنم ، واتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة فى العيش. وهؤلاء الصعاليك إما أن قبائلهم طردتهم وخلعتهم ، وإما أن آباءهم لم يلحقوهم بهم لأنهم من أبناء الحبشيات السود ، وهؤلاء يطلق عليهم أغربة العرب ، وإما أنهم احترفوا الصعلكة باختيارهم .

واشتهروا بالسرعة الفائقة فى العدو وأبرزهم فيه عُروة بن الورد وتأبط شرا والشنفرى وكانوا يهتمون بالحديث عن الفقر وأصدائه فى نفوسهم .

يقول عروة بن الورد لزوجته :

ذَرِينى أُطَوِّفُ فى البلاد لَعَلَّنى ∴ أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فاز سَهْمٌ للمنيّة لم أكُن ∴ جَزُوعًا وهَلْ عن ذاك من متأخر
وإن فَازَ سهمى كفَّكم عن مقاعد ∴ لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

فهو مصر على الإغارة حتى لا تضطر زوجته إلى ذل السؤال ، وهو بين أمرين إما أن يقتل فهو أرحم لها ، وإما أن يغنم فيعزها وأبناءها .

وتحدثوا عن تحملهم الجوع ، يقول الشنفرى :

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتى أُمِيتَه ∴ وأضرب عنه الذكر صفحا فأُذْهَلُ

---

(١) راجع : الشعراء الصعاليك د / يوسف خليف ، شعر الصعاليك د / عبد الحليم حفنى ، الشعر الجاهلى د / شوقى ضيف ، فى الأدب الجاهلى د / على الجندى ، تاريخ الأدب العربى / بروكلمان شعر تأبط شرا — تحقيق سلمان داود القرةغولى ، جبار تعبان الجاسم، الصعلكة والفتوة فى الاسلام / أحمد أمين، الأغانى جـ ٢١ وغيرها .

ورغم أنهم اشتغلوا بقطع الطريق إلا أنهم تَحَلّوا بصفات كريمة من عفة نفس ، وإباء ، وأنفة .. إلخ .

فهم يفضلون الموت بعزة على الحياة بذلة — يقول عروة :

وما طالب الحاجات من كل وجهة ∴ من الناس إلا من أَجَدَّ وشَمَّرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى ∴ تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ويقول الشنفرى :

وأستفّ تُرْبَ الأرض كي لا يُرى له ∴ عليَّ من الطَّوْل امرؤٌ مُتَطَوِّلُ
ولولا اجتنابُ الذّام لم يُلْفَ مَشْرَبٌ ∴ يُعاش به إلا لديَّ ومأكلُ
ولكنَّ نفسًا حُرَّةً لا تقيم بي ∴ على الضَّيْم إلا ريثما أتحولُ

وقال :

وإنْ مُدَّتِ الأَيْدي إلى الزَّاد لَمْ أكن بأَعْجَلِهم إذ أَجْشَعُ الْقَوْم أَعْجَلُ

وصفات أخرى طيبة جاءت في اشعارهم .

وقد وصفوا أدوات الحرب في شعرهم وهي السيف والرمح والقوس والدرع .. وأطرف اسلحتهم سلاح العدو ، وهو من أساسيات الصعلكة، واتسم شعرهم بعدة سمات نرجئ الحديث عنها إلى حين الانتهاء من ترجمة أحد مشهوريهم وهو :

تأبط شرا

هو : ثابت بن جابر بن سفيان بن عَمِيثَل بن عَدِي بن كعب .. خال الشنفرى، جاهلي ، من الصعاليك ، كان فاتكا قويا ، يغلب الرجال ... وقد سئل ذات مرة : بم تغلب الرجال يا ثابت وأنت دميم ضئيل ؟

قال : باسمى ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شرا فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت .

لقبه :

عرف بلقبه هذا واشتهر به ، مع أنه ليس فى صميم نسبه ، واختلف فى سبب تلقيبه بـ " تأبط شرا " .

وارجح الأقوال وأقربها إلى التصديق هو :

أن أمه عندما سئلت عنه قالت : لقد تَأَبَّطَ شرًّا وخرج ، وكان قد وضع تحت إبطه سكينا أو سيفا .. وقيل غير ذلك .

وكان تأبط شرا أَعْدَى ذى رجلين وذى ساقين ، وأبصر ذى عينين ، وفى ذلك يقول :

لا شَيْءَ أسرعُ منى غير ذى عُـذَرٍ .:. أو ذى جناح بجنب الرَّيْدِ خَفَّاقِ(١)

وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، ينظر إلى الظباء فينتقى أسمنها ، ثم يجرى خلفه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله .

وله مع الغول قصص فى شعره ، ويبدو أنه قد نُسجت حوله الأساطير حتى صار كأنه بطل أسطورى خارق .

---

(١) ذى عُذَر : جمع عُذْرة وهو ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس ، الرَّيد : حرف الجبل ، والمعنى : لا شىء أسرع منى إلا الفرس والطائر الجارح الذى يأوى إلى الجبل ، إذ هو أسرع طيرانا من جارح السهل . "ولا" فى البيت : أداة استثناء .

ويقال :

إن أمه تزوجت من أبي كبير الهذلي ، وأحس أبو كبير بحقد وشر في نظراته فاستدرجه إلى حيث يلقى هلاكه في إحدى الغارات حتى انتهى به إلى عدوّين له ، ولكن أبا كبير رجع مرعوبا حينما وجد تأبط شرا قد قَتَل عَدُوَّيْه وعاد يطعامهما .

* <u>شعره</u> :

تعددت أغراض شعره فمنها : الفخر بنفسه وأعضاء جسمه بدءا من رأسه ونهاية برجليه ، وفخر بجماعة الصعاليك .

ومنها : الوصف ، فقد وصف الحيوان عموما ، ونالت الغول منه اهتماما خاصا فلها نصيب وافر من شعره ، يصف ملاقاته للغول قائلا : (١)

فأَصْبَحَتِ الغُولُ لي جـــارةً ∴ فياجارتا لكِ ما أَهْـــوَلا
فطالبتُها بُضْعَهَا فالْتَـــوَتْ ∴ بوجهٍ تهوَّل فاسْتَغْـــوَلَا
فمن كان يسأل عن جارتـــي ∴ فإنّ لها باللّوى مـــنزلا

ويرى الدكتور يوسف خليف أنه " ربما يقصد من الغيلان تلك الفصيلة من الحيوان المعروفة باسم " الغوريلا " ولكن هذا لا ينفى أن صورتها عنده محاطة بإطار أسطوري " (٢) ..

وقد وصف تأبط شرا الحرب وأدواتها ، وبلاءه فيها .. إلخ

---

(١) الاغاني (دار) ٢١ / ١٢٨ ، البضع : الفرج .
(٢) الشعراء الصعاليك ص ٢٤٥

وفى شعره حكمة تنمّ عن خبرته بالحياة النكدة التى عاشها الصعاليك فى الصحراء ، ولذلك تحس فيها حرارة الانفعال ، وقسوة التجربة ، ومر العيش .

أما الغزل فيكاد شعره يخلو منه حتى فى مقدمات القصائد وهى سمة عامة فى شعر الصعاليك ، فما شأنهم والحب وهم بين التجول والتنقل والمغامرة !!

وإذا كانت بعض أسماء النساء وردت فى أبيات له فإنها لا تدل على حب حقيقى ، وفى شعره رثاء لإخوانه من الصعاليك ، ومن أشهر مراثيه قصيدة فى رثاء الشنفرى صديقه ، ابن اخته .

واما المدح فقليل فى شعره ، وهو من نصيب رفقائه فى الصعلكة "ذلك أن المدح عند الشعراء مرتبط بالتكسب والاستجداء ، وتأبط شرا والصعاليك أبعد ما يكونون عن السؤال والتطلع إلى ما فى يد الغير ، فلقد اعتاد الشاعر أن يكسب قوته بقوّته" (١)

وقد اهتم القدماء بشعر تأبط شرا ، وعنوا به ، وبلغ من عناية "المفضل الضبى" به أن صدّر مفضلياته بقصيدة منه مما يدل على مكانته عنده ..

كما أورد العسكرى شعرا له فى الصناعتين ، وله شعر فى حماسة الخالديّين — وفى غير هذه من المصادر ..

---

(١) الصعلكة والفتوة فى الإسلام / أحمد أمين ص ٤٥ .

وهذه إحدى قصائد تأبط شرا (١) :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنـــــــــه
لأَوّلِ نَصْلٍ أن يلاقي مَجْمَعـــــا (٢)

فلم تر من رأيٍ فتيلاً وحـــــاذَرَتْ
تأَيُّمَها من لابسِ اللّيل أَرْوعـــــا (٣)

قليلِ غِرارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّـــــه
دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُقَنَّعـــــا (٤)

قليلِ ادّخار الزّاد إلا تَعِلَّـــــةً
وقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والْتَصَقَ المِعَا (٥)

يَبِيتُ بمَغْنَى الوحش حتى أَلِفْنَـــــه
ويصبحُ لا يَحْمِى لها الدهرَ مَرْتعـــا (٦)

---

(١) القصيدة فى الأغانى (دار) ٢١/١٤٥ ، وشعر تأبط شرا ص ٩٧ ، ١٠٠ .

(٢) لأول نصل : أى يموت لأول ضربة سيف . والمصدر المؤل بـــدل من نصل : أى يموت لأول لقائه جمعا من المغيرين .

(٣) الفتيل : الخيط فى شق النواة ، والفتيل والنقير والقطمير يضـــرب بها المثل فى حقارة الشئ وعدم نفعه. لابس الليل : كثيـــر الغارات ليلا ، وقيل هو كناية عن الحذر . أروع : ذكـــى الفؤاد أو يُعْجِب بشجاعته .

(٤) غرار النوم : النوم الخفيف . الكمى : الشجاع . المقنع : الملثم الذى يلبس القناع .

(٥) الشرسوف : الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن . المِعَى : واحد الأمعاء . نشز الشرسوف : برز .

(٦) مغنى الوحش : مقامه .

وأَيْنَ فَتًى لاصَيْد وحش يهمّـــــــه
فلو صَافَحتْ إنسًا لَصَافَحْتَه مَعـــا

ولكن أرباب المَخاضِ يشقّهـــــم
إذَا افْتَقَدُوه أوْ رَأوْه مُشَيَّعَـــا (١)

وإنى ولاعلمُه لأعْلَمُ أنّنـــــى
سألقى سِنَانَ المَوْتِ يرشُق أضْلُعا (٢)

على غِرَّة أو جهرة من مُكَاثِـــــر
أطال نزال الموت حتى تَسَعْسَعا (٣)

وكنتُ أظُنُّ الموت فى الحـــىِّ أو أرى
ألذّ وأكْرى أو أموتَ مُقَنَّعــــا (٤)

ولست أبيتُ الدّهرَ إلا على فتــــى
أسلّبُه أو أذْعِرُ السِّرْبَ أجْمَعــا (٥)

ومن يضربُ الأبطال لابدّ أنّـــــه
سَيلْقَى بهم من مَصْرَع الموت مَصْرَعَا

---

(١) ارباب المخاض : أصحاب الإبل الحوامل • يشقهم : يؤرقهم ويكد عيشهم ويهزلهم • مشيّعا : ذاهبا فى رحلة •
(٢) سنان الموت : أى الموت نفسه ، وقد شبهه بالسلاح • يرشق أضلعا : يرمى أضلعه •
(٣) غرة : غفله • مكاثر : كثير الغارات ، يعنى نفسه • تسعسع : فنى وذهب •
(٤) فى الديوان : فكيف • أكرى : أزيد • المُقَنّع : من يلبس الخوذة على رأسه •
(٥) أسلبه : استولى على كل ما معه من مال ومتاع • •

يُمَا صِمُه كلُّ يشجع قومـــــــــــه

وما ضَرْبُه هَامَ العِدا لِيُشَجَّعَــــا (١)

المناسبة :

قال "تأبط شرا" هذه القصيدة بعد أن خطب امرأة ، فأرادت أن تتزوجه ، ووعدته بذلك ، فلما جاءها وجدها قد رغبت عنه ، فقال لها : ما غيّرك ؟

فقالت : والله إن الحَسَب لكريم ، ولكن قومى قالوا : ما تصنعين برجل يُقتل لأول نصل ، وتبقين بلا زوج ، فانصرف عنها وهو يقول هذه القصيدة .

ويتحدث فيها عن ثلاث طوائف من هؤلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : أصحاب المواشى ، وأصحاب المزارع الخصبة ، وأصحاب النوق الحوامل .

شرح الأبيات :

لقد عرف الناس عن تأبط شرا أنه مغامر يستهين بالموت ، فهو مُعَرَّض له بين الحين والآخر ، حتى إنهم نصحوا الفتاة أن ترفض الزواج منه ، حتى لا تتأيم سريعا بمجرد أن يصيبه أول سهم من جماعة يلاقيهم .

إن الفتاة لم تُعِرْ عرض الزواج التفاتًا لأنها خشيت هذا التأيم ..

---

(١) يُما صِمه : يجالده ويقاتله . ليشجعا : أى لا ليقال إنه شجاع .

ويتحدث الشاعر عن نفسه ، فهو الحذر اليقظ الذى حين ينام لا يستغرق فى نومه بل إنه يكون إلى اليقظة أقرب، وكيف يستغرق فى النوم وأكبر همه الثأر الذى يتطلب يقظةً وحذرًا ولا سيما أنه يلقى شجعانا صناديد بواسل لابسى الدروع مقنعين .. وإذا لم يطلبهم فإنهم يطلبونه .

وإنه لا يدّخر زادًا ولا يريد منه إلا ما يسد به رمقه ، ويتعلل به ، وقد ظهر أثر الجوع فى جسده وأضلاعه حتى برزت رءوس الأضلاع والتصقت بطنه بظهره لخلوها من الطعام .

وبعد أن تحدث عن طعامه وطريقته فى الأكل ، أخذ فى الحديث عن موطنه الذى يعيش فيه فذكر أنه يبيت فى المكان الذى يبيت فيه الوحش لدرجة أن الوحوش أَلِفَتْه لطول عيشه بينها مسالمًا لها ، فأنست به ، واطمأنت إليه ، وهو لا يمنعها من الرعى فهى لا تخافه لأن همته مصروفة إلى غيرها . وهذا مما يدل على قوة ثباته .

وإذا كانت الوحش تأنس به ، فإن أرباب الإبل الحوامل يخشونه على إبلهم ، فهم يفزعون حين يفتقدونه فلا يجدونه ، أو حين يرونه مشيحا إلى رحلة .

وهذه إحدى الطوائف التى يغير عليها (أصحاب النوق الحوامل) ويقول :

إننى على يقين من أن الموت أمر لا مفر منه ، وإننى مهما عُمِّرْت فلابد أن ألقى سنانه ترى أضلعى وتودى بى . وقد يكون ذلك على حين غفلة أو جهارا . وحينئذ ينال الموت من فارس أكثر من الإغارة

والغزو وَعَشِقَ نزال الأبطال حتى ولّى أكثره .

وقد كنت أعدّني ميتًا ما لبثت في الحى أو في موطن من المواطن حتى أخرج للغزو فألتذّ به ، وأزيد متعة ، أو أموت وعلى رأسى البيضة (الخوزة) .

وإنه لا يتربص لأناس بعينهم ، ولكنه يتعرض لكل من يسوقه حظه العاثر النكد إلى منطقة تربصه ، وهو لا يقر له قرار ، ولا يرتاح له بال إلا إذا أصاب فردا يسلبه كل ما معه ، وإلا فهو يغير على سرب من الوحوش فيصيد ، ، فحياته بين صيد وقنص .

وإنه ليتوقع ان سوف يلقى مصرعه يوما ، فمن الطبيعى أن الذى يُطَارِدُ من أعداء كثير لابد أن ينالوه يوما . ولكأنى به يلتمس العذر لتلك الفتاة فى رفضها الزواج من رجل هذه نهايته — وقد تكون قريبة .

وفى النهاية يؤكد فتوته وقوته وبسالته حين يذكر أن أعداء ، يشجعهم أقوامهم ويقفون من خلفهم ، أما تأبط شرا فإنه لا يضرب هام أعدائه بُغْيَة قول القوم عنه إنه شجاع ، فذلك أهون شىء عنده .

وقد يكون المعنى : إن أقوام خصومه يشجعونهم ويساندونهم ، أما هو فيقف وحده فى وجه هؤلاء ولا يحتاج إلى سند أو معين .

التعليق :

حين تقرأ هذه القصيدة تشعر أن اضطرابا قد أصاب ترتيب الأبيات فيها ، وهذا راجع إلى الرواة ، فالقصيدة قد وردت فى الأغانى وفى الحماسة ، وفى الديوان والترتيب مختلف فى كل منها عن الآخرى .

وترتيبها في الأغاني ـ فيما أرى ـ أقرب إلى حقيقتها التي نطق بها الشاعر، وأدنى إلى الوحدة العضوية، وإلى الواقع أيضا . ولننظر مثلا ـ في ختام القصيدة فنجدها ختمت في الأغاني بهذا البيت :

وَمَنْ يَضْرِبُ الأَبْطَالَ لا بدَّ إنه
سَيَلْقَى بهم من مَصْرَعِ الموت مصرعا

فهو بمثابة قُفْل محكم للقصيدة، ويتفق مع الواقع، فنهاية الحياة الموت وعلى الأبطال ـ أمثال تأبط شرا ـ أن يتوقعوا القتل على يد أحد أعدائهم، وكأنه ـ كما ذكرت ـ يعود الى بدء القصيدة، ويلتمس عذرا لتلك الفتاة التي إن تزوجته ستتأيّم اليوم أو غدا .

خصائص شعر تأبط شرا

حين نتحدث عن شعر تأبط شرا فإن الحديث يكون عن جزء من شعر الصعاليك، ذلك الشعر الذي اتسم بسمات معينة تميّز بها عن سائر الشعر الجاهلي ..

وهذه الخصائص وإن اشترك فيها الصعاليك إلا أن درجات شيوع خاصية من الخصائص تتفاوت فيما بينهم قلة وكثرة، وهذا أمر بدهي فالبيئة وإن كانت واحدة إلا أن الشخصيات متميزة متفاوتة .

ومن خصائص شعر الصعاليك :

١ ـ غلبة المقطوعات على شعرهم . وهذا يتلاءم مع طبيعة حياتهم، وظروف عيشهم، فهم مشغلون بالإغارة والحرب، وليس

عندهم وقت لتطويل قصائدهم .

وقد يكون هذا الشعر ناقصا ، بسبب عدم اهتمام قبائل الصعاليك بحفظ ورواية هذه الأشعار .

وأطول ما "لتأبط شرا" قصيدتان ، إحداهما في رثاء "الشنفرى" وهي سبعة وعشرون بيتا ، والثانية — وهي قافية — ستة وعشرون بيتا .

٢ — الوحدة الموضوعية . فمن اليسير وضع عنوان للقصيدة يدل عليها من بدايتها إلى نهايتها ، فالقصيدة ذات موضوع واحد ، وليس فيها مقدمة طللية ، بخلاف الشعر الجاهلي فالقصيدة فيه متعددة الموضوعات .

٣ — شيوع الألفاظ الغريبة .

فالناظر في شعر الصعاليك يشعر — أحيانا — أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية ، يضطر إزاءها للرجوع إلى المعاجم اللغوية المطولة .. (١)

وهناك ألفاظ لم يعثر عليها اللغويون إلا في شعر الصعاليك ولعل أكثر الصعاليك إغرابا "تأبط شرا" .

يقول ابن منظور (٢) : إن "الخَيْعَابَة" بمعنى الردىء لم يسمع إلا في قول "تأبط شرا"

---

(١) الشعراء الصعاليك / يوسف خليف ص ٣١١ .

(٢) اللسان (خعب) .

ولا خَرِعٍ خَيْمَا بَةٍ ذى غَوائِـــــلِ

هَيَامٍ كَجُفْرِ الأَبْطَحِ المُتَعَيِّـــل (١)

ويذكر ابن سيدة أنه يقال رجل تِرْعِيَّة لمن صناعته وصناعة آبائـــه الرعاية ، أما ترعى بغيرهاء فإنه نادر ، وقد ورد فى قول تأبط شرا(٢) :

ولستُ بِتِرْعِيٍّ طويلٍ عَشَـــاؤُه

يُؤَنِّفُها مستأنِفَ النَّبْتِ مُبْهِـــل

وديوانه ملىء بهذه الألفاظ الغريبة .. ولذلك زخرت كتـــب اللغة والمعاجم بشعره .

٤ — الواقعية .. وهى من سمات الشعر الجاهلى عمومـــا والصعاليك خصوصا .

ومن مظاهر هذه الواقعية :

أ — أن شعرهم بمثابة مذكرات شخصية ، دَوَّن كل منهم فيـــه خواطره ، دون تزييف، ولا مبالغة ، فشعرهم صورة لحياتهم بفقرهـــا وجوعهم ، وهزالهم ، وهوانهم على الناس .

---

(١) اللسان / خعب / والخرع : السريع التثنى والانكسار . خيعابـــه : الردىء أو القَصِفُ المتكسر ، وقبل المأبون . الأبطح : مطيـــل واسع فيه رقاق الحصى . المتهيل : شديد الانحدار .

(٢) اللسان / رعى : يؤنفها : يتتبع بها أنف المرعى . مبهـــل : تارك إبله مهمل إياها .

ب — ظهور الخبرة العملية في شعرهم [1] . فحين يتحدثون عن الحيوان — مثلا — فحديثهم حديث الخبير ، ومن هنا اعتمد أصحاب كتب الحيوان — كالجاحظ — على شعرهم في هذا الصدد .

"فتأبط شرا" حين يصف الحية يذكر أن خروجها يكون "بُعَيْد غروب الشمس" وهو تحديد دقيق لوقت خروج الأفاعي من جحورها تؤيده الخبرة العملية ، وهذا ليس بغريب عليه ، فهو مضطر إلى ملاحظة هذه الظواهر ، وقد قيل له [2] : "هذه الرجال غَلَبْتَها فكيف لا تنهشك الحياتُ في سُرَاك ؟ فقال : إني لا أسرى البَرْدَيْن يعني أول الليل لأنها تمور خارجة من جحرتها ، وآخر الليل تمور مقبلة إليها "

جـ — الدقة في التعبير [3] : بحيث تكون العبارة واضحة محددة تحديدًا لا غموض فيه ولا التواء . فحين يعتذر "تأبط شرا" عن فراره من أعدائه مخلّفًا صاحبه لهم نراه يضع المسألة وضعًا "حسابيا" فماذا يفعل وقد نظر فإذا هؤلاء الأعداء أكثر من ثلاثة أمثالهما ؟ ولو أنهم كانوا مثلهما أو ثلاثة أمثالهما ما فر مخلفا صاحبه لهما :

---

(١) راجع الشعراء الصعاليك / يوسف خليف ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢) الأغاني ٢١ / ١٣٠ (دار) .
(٣) الشعراء الصعاليك ص ٢٨٤

تقول :تركتَ صاحبًا لك ضائعـــا [1]
وجئتَ إلينا فارقًا مُتَبَاطِنــا
إذا ما تركتُ صاحبى لثلاثــة
او اثنين مثلَيْنا فلا أُبْتُ آمنــا

٥ - عدم التزام التصريع • وهى ظاهره توشك أن تكون مطردة فى كل شعرهم •

ويعلل الدكتور يوسف خليف لذلك قائلا : [2]

"وتعليلها عندى يرجع إلى تلك الثورة التى كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم ، وإلى تلك الحرية التى كانوا يعيشون فيها والتى كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ••• فكان شعرهم ثائرًا على الأوضاع الفنية فى الشعر الجاهلى القبلى " •

١

(١) الأغانى ٢١ / ١٣٥ فارقا متباطنًا : فارقته وجئت متخفيا ، وفى البيت الثانى : يدعو على نفسه إن كان ترك صاحبه لعدد قليل ، وإنما هو جمع لا قبل لهما به •
(٢) الشعراء الصعاليك ص ٢٧٢ •

٣- من الشواعر :

الخنساء

الخنساء (*)

هى : تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد .. من بنى سليم ابن منصور .

شاعرة مخضرمة ، عاشت فى الجاهلية والإسلام ، وفدت مع قومها فأعلنوا إسلامهم أمام الرسول "صلى الله عليه وسلم" .. وعاشت إلى خلافة عثمان رضى الله عنه .

ومعظم شعرها قالته فى الجاهلية فى رثاء أخويها . ومن هنا ينسبها بعض النقاد — فنيًّا — إلى العصر الجاهلى ، ومن هؤلاء : ابن سلام وابن قتيبة .

ولها أخوان مشهوران حَظِيا بمراثيها وهما : صخر — غير شقيق ، ومعاوية أخ شقيق .

وكان معاوية " سيد قومه ، صديقًا "لدريد بن الصمة" الشاعر الفارس ورأى "دريد " الخنساء فأعجب بها ، فطلبها إلى أخيها معاوية ، فعرض الأمر على الخنساء فقالت : أَتُرانى تاركةً بنى عمى

(*) راجع/ أسد الغابة ٧/ ٨٨ وما بعدها ط الشعب ، الإصابة ٨/ ٧٤ ، الاستيعاب ١٨٢٧ ، الشعر والشعراء ٣٤٣ ، الأغانى ١٥ ، ٧٦ ، جمهرة أنساب العرب/ ابن حزم ٢٦٢ ، طبقات ابن سلام ٣٠٣ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة (الخنساء) ، الخنساء د / بنت الشاطئ ، ص ٢٣ ، الخنساء شاعرة بنى سليم د / محمد جابر الحينى ، دراسات فى الأدب العربى / غوستاف فون برنباوم ط بيروت ص ١٣٧ وديوانها : تحقيق د / عوضين ، مطلع القصيدة العربية د / عبد الحليم حفنى ، أعلام النساء /عمر رضا كحالة =

مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد !!!

وتزوجت رجلا من قومها ، وكان مقامرا سكيراً متلافاً للمال ، لم يبق لبيته شيئا .. حتى همّ بالرحيل للحصول على مال ، وحينئذ جاءت الخنساء صخرا فشطر ماله شطرين .. وتكررت القصة مرة أخرى ففعل صخر مثلما فعل في المرة الأولى ، فقالت له امرأته : أعطها أخس ماله فقال : (١)

والله لا أمنحها شرارها ∴ وهي حَصَانٌ قد كَفَتْني عارها

ولو هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خمارها ∴ واتخذت من شَعَر صِدَارها

وقد وفت الخنساء كأحسن ما يكون الوفاء ، فكانت عند حسن ظن صخر بها ، ففاز صخر بجلّ شعرها في حين لم يحظ أخوها الشقيق إلا بالقليل .

منزلتها عند النقاد :

* — جعلها "ابن سلام" في الطبقة الثانية بين أصحاب المراثي مقدما عليها : متمم بن نويرة ، وقدمها على أعشى باهلة وكعب بن سعد الغنوي. (٢)

* — وقد فضلها الشعبي على نساء الجاهلية أجمع ..

* — وسألوا جريرا عن أشعر الناس فقال : أنا لولا هذه الخبيثة ، يعني الخنساء ، فسألوه : بم فضلتك ؟ قال بقولها : (٣)

(=) ١ / ٣١٦ وما بعدها .

(١) الشعر والشعراء ٣٤٦ ، العقد الفريد ١ / ٢٢ .

(٢) طبقات ابن سلام ١ / ٢٠٣ .

(٣) شرح المقامات للشريشي ٢٣٣ .

إِنَّ الزَّمانَ وما تفنى عجائبـــــه
أَبْقَى لنا ذَنَبًا واسْتُؤصِل الـــرّاس

أَبْقَى لنا كلَّ مجهول وَفَجَّعَنـــا
بالحالمين فهم هام وأَرْمَـــاس

إن الجَدِيدَيْن في طول اختلافهمـــا
لا يَفْسُدان ولكن يَفْسُـد النـــاس

* — وقال ابن عبد البر : (١)

"وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها" .

* — وكان بشار يقول : (٢)

لم تقل امرأة شعرًا إلا ظهر فيه الضعف، قيل له : وكذلك الخنساء؟ فقال : تلك فاقت الرجال .

وقيل أكثر من ذلك ..

من عيون مراثيها التي استجادها النقاد "الرائية" التي ترثي فيها صخرا :

قَذًى بعينك، أم بالعيـن عُـــوّارُ
أم ذَرَّفت إذ خَلَتْ من أهلها الـدّارُ (٣)

---

(١) الاستيعاب ١٨٢٧ .
(٢) الشريشي ٢٢٣، وأعلام النساء ١/٣٠٧ .
(٣) العوار : وجع في العين . ذرفت : قطرت قطرا متتابعا لا يبلـغ ان يكون سيلا .

كأنّ عيني لذكراه إذا خطرت
فيضٌ يسيلُ على الخدّين مدرار

تبكي لِصَخْرٍ هي العَبْرى وَقَدْ ولِهَتْ
ودونه من جَدِيد التُّرْب أستار (١)

تبكي خُنَاس فما تنفك ما عمرت
لها عليه رنينٌ وهي مُفْتَار (٢)

تبكي خناس على صخر وحق لها
إذا رابها الدهر إن الدهر ضَرّار

لا بد من مِيتَةٍ في صَرْفِها عِبَرٌ
والدهر في صَرْفه حَوْلٌ وأَطْوار (٣)

بدايةً تحس قلقا وترددا من خلال هذه التساؤلات في مطلع القصيدة ... لماذا هذه الدموع ؟ أبِنْ قذًى بالعين ؟ أم لعوار بها ؟ أم لإقفار الدار وخلوها من أهلها ؟ ..

وتأتي الأجابة المحدّدة لسبب الدموع ..

إن البكاء بسبب ذكرى صخر ، تلك الذكرى التي جعلت من العين "فيضا يسيل على الخدين مدرارا" وهكذا كانت دموعها متدفقة مستمرة ، مستديمة ... وتعود فتؤكد البكاء بتكرار لفظ "تبكي لصخر"

---

(١) العَبْرى : التي لا تجف دموعها . الوَلَه : ما يصيب الرجل والمرأة من شدة الجزع عند المصيبة .
(٢) الرنين : البكاء . المفتار : التي أصابها فترة أي ضعف .
(٣) عبر : اعتبار . حَوْلٌ : أي يحول ويتقلب بأهله ويختلف . أطوار أي طور كذا وطور كذا .

وكأنها تجيب على من يسألها : لماذا هذه الغزارة في الدموع ؟ فتجيب : إنه صخر — الذي جعلها "عَبْرَى" أى لا تجف عينها من الدموع، "وَلِهَة" أى جزعة من شدة مصيبتها .

وهى متأكدة موقنة أن هذا البكاء لا يجدى شيئا ، فقد وورى صخر التراب، ولكنه ليس كأى تراب، إنه تراب جديد .. فما تلك الجدة ؟ إن التراب يخفى ويوارى ، ولكن هذا التراب فريد فقد وارى صخرا .. وما أدراك ما صخر !!!

والباكية هى "خناس" وستظل باكية طول عمرها ، صارخة ، نائحة وقد أصيبت بضعف وانكسار .. وكيف لا تبكى ؟ وكيف لا تضعف ؟ .. والمبكى هو "صخر" الذى أصابها الدهر فيه ، كما ألحق بها الضرر من قبل ، وهذا شأنه معها .

وما دام الدهر — وتلك حقيقته — ضرارا فإنه لابد أن يختصها وقومها بميتة فيها العبر والعجائب، ولا غرو فإن من صفاته التحول والتقلب، فلا أمان له .

وهكذا كان ختمها لهذا المقطع من القصيدة بتلك الحكمة التى استوحتها من آلامها وأحزانها فى الأبيات السابقة .

ثم تقول :

قد كان فيكم أبو عمرو يسودكم
نعم المعمّم للداعين نَصّار (١)

(١) المعمم : المسوّد الذى سوّده قومه وقلّدوه أمرهم . أبو عمرو : إحدى كُنى صخر .

صُلْبُ النَّحيزَة ، وَهَّابٌ إذا مَنَعُوا
وفي الحروب جرئُ الصَّدْرِ مِهْصَار (١)

يا صخر وَرَّاد ماءٍ قد تَنَاذَره
أهل المَوارد ما في وِرْدِه عار (٢)

مَشى السَّبَنْتَى إلى هَيْجاءَ مُعْضِلَة
له سلاحان أنيابٌ وأظْفَار (٣)

ومن فعل الدهر أنه جعل صخرا في خبر "كان" ، وصار يُعَبَّر عنه بهذا الفعل الذي يدل على الماضي مما يستدعي التحسر والتألم على هذا الذي كان سيدا لقومه ، وصاحب التاج فيهم ، يغيث الملهوف ، ويفرج المكروب ، ذا طبيعة صارمة ، صلبة ، منيعة ، جوادا كريما حين يعز العطاء ويمتنع على الناس ، وهو الشجاع ذو البأس الذي تعود الغلبة على أعدائه .

وإنه "لورَّاد ماء" أى كثير ورود الماء ، وهذا الماء يصعب على غير صخر أن يصل إليه ، وإنه لن يُعَيَّر هذا العاجز عن عدم تمكنه من الوصول — لأن الماء يصعب وروده ، بل يكاد يكون مستحيلا ، غير

---

(١) صلب النحيزة : قوى الطبيعة . مهصار : يهصر الأعناق ويدقها .
(٢) وَرَّاد : كثير الورود . تناذره : أى أنذر بعضهم بعضا هَوْله وصعوبته . ما في ورده عار : أى ليس من عيب أو عار يلحق من عجز عن وروده .
(٣) السبنتى : النمر الجرئ .

أنّ صخرا ورده ، لأنّه ليس فردا عاديا . ولم يرده مرة واحدة ولا مرتين وإنما ورده كثيرا وقد استفدنا ذلك من صيغة المبالغة "وَرّاد" .

وتصف خروجه إلى ميدان الوغى ، فهو يخرج إليها مندفعا كالنمر الجرىء الذى لا يأبه بشىء ، ولا يلوى على شىء ، فغايته واحدة هى الدخول فى حومة الوغى ، وكأن ذلك صار هواية له ، وكانت الحرب شديدة شرسة ولذلك تسلّح بسلاحين : أنياب وأظفار .

ويأتى المقطع الثالث فى القصيدة الذى يُعَدّ واسطة العقد فيها فقد برعت الخنساء فيه براعة فائقة بنظرتها الفاحصة المتأملة المتعمقة لذلك "البَوّ" وحيرة أمه وحزنها وصدمتها حين تكتشف الحقيقة فتقول :

وما عَجُولٌ على بَوٍّ تُطيفُ بـه
لها حنينان : إعْلاَنٌ وإسْرار (١)
تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ
فإنما هى : إقْبَالٌ وإدْبار (٢)
لا تَسْمن الدَّهْرَ فى أرض وإن رَتَعَتْ
فإنما هى تَحْنانٌ وتَسْجَارُ (٣)

---

(١) العَجُول : التى يموت ولدها صغيرا . البَوّ : أن يُنحر ولد الناقة فيأتون بجلده ، ويحشونه ويضعونه بالقرب من أمه حتى تدرّ .
(٢) ترتع : ترعى .
(٣) يقال حنت الناقة : إذا طرّبت فى إثر ولدها ، فإذا مدت الحنين وطرّبت قيل سجرت .

يومًا بأوجَدَ مني يوم فارقنـــــي
صَخْرٌ وللدهر إحْلاءٌ وإمْــــرارُ

وهي تريد أن ترينا مبلغ حزنها لشدة ما أصابها ، فاختارت مـن البيئة ما يبين حدود هذا الحزن ، إنها صورة تلك الناقة "الثكلـى" التي صارت "عجولا" لأنها فقدت وليدها وهو صغير ، وجـــاءوا بجلد ، محشوه قشًا أو ما أشبهه ، وأدنوه من أمه حتى تَدرّ عليه ، وتجئ الناقة الأم تطوف حول ابنها وتتشممه فلا تجد فيه حياة ، فتُصْـدم وترتاع وتحزن حزنًا شديدا ، فتأخذ في ترجيع الحنين مرة في صـوت خفيض أو غير مسموع وإنما هو محسوس ربما بالرؤية،ومرة بصوت عال ... ويعاودها الحنين وتتناسى صدمتها الأولى فتعود إلى البَوّ — بعد ما رتَعَتْ ثم ادّكرت — لتُصدم مرة ثانية ، وتظل — هكذا — بين الإقبال والإدبار ، فيتضاعف حزنها ، ولو أنها ظلت عمرها آكلة من عشب جيد وغير ما أسمنها ، لأنها صارت هي الحنين بعينه على صورتين مـرة قصيرا ، وأخرى طويلا (فإنما هي تحنان وتسجار) .

أرأيت إلى هذه الناقة ومبلغ حزنها ، وتوالي صَدَماتها وتتابعها ... إنها ليست بأشد حزنًا من الخنساء على أخيها صخر الـذى فجعها فيه الدهر الذى ما يسعد إلا وأشقى ، وما يُحلي إلا وأمر .

وفي هذا المقطع تحس موسيقى جميلة هي من سمات شعـر الخنساء .

فإذا نظرنا إلى هذه الشطرات اثنتين اثنتين ،تبين لنا ذلك

له سلاحان أنيابٌ وأظفــــــار

لها حنينان إعـــلانٌ وإسْـــرَار

ثم قولها :

فإنما هي إقبـــال وإدبـــــار

فإنما هي تَحْنَـانٌ وتَسْجـــــار

وبعدهما : وللدهر إحـــلاء وإمـــــرار

ثم في المقطع التالي :

وإن صخرا إذا نشتو لنَحَّـــــار

وإن صخرا إذا جاعـــوا لَعَقَّـــار

هذا التتابع في الثنائية بالصيغتين "إفعال وإفعال" يدل على مقدرتها الموسيقية الفذة ، التي خلقت جوا يتناسب مع أحاسيسها ومشاعرها .. فالصيغ المستعملة تدل على تكرر المصائب ، وتوالى الأحزان ، وتتابعها بصورة سريعة ، ناسبها هذا الإيقاع .

يضاف إلى ذلك التضاد بين المعطوفات والمعطوفات عليها (إعلان — إسرار ، إقبال — إدبار ، تحنان — تسجار ، إحلال إمرار)

وقد ذهب أحد النقاد[1] إلى أن الخنساء "أضعفت الصورة بالجملة الأخيرة التي وصفت بها الدهر بأنه متقلب يصفو فيكون حلوا ويعتكر فيكون مرا ، ومن الواضح أن هذه الجملة "وللدهر إحلاء وإمرار"

---

(١) الدكتور / محمد جابر الحيني في كتابه / الخنساء شاعرة بني سليم .

ضعيفة الصلة بالصورة الشعرية ، ومن ثم فإن الضرورة هي التي اضطرت الشاعرة إليها لتكمل المصراع الثاني في البيت ، فأفسدت جانبا من جمال الصورة ، وهذا خطأ لا يغتفر للخنساء "
وأنا لا أوافقه على ذلك .

فلو رجعنا إلى نهاية المقطع الأول لوجدناه (والدهر في صرفه حول وأطوار) وربطت بينه وبين ما تلاه بقولها "قد كان" ، والدهر هو الذي تسبب في ذلك واضطرها إلى الحديث عنه بصيغة الماضي "كان" ، ثم أخذت في نعته ، وبيّنت مدى حزنها في المقطع الثالث عن طريق "البَوّ" وختمت المقطع بقولها "وللدهر إحلاء وإمرار" مما يدل على أن فعل الدهر بها لا يزال في ذهنها طوال القصيدة ، وكيف لا وهو مسبّب حزنها ـ كما كان هو نفسه سببا في حزن الناقة ؟

ثم إن الشطرة الأولى (يومًا بأوجد مني يوم فارقني .. صخر) سوغ لتلك الجملة "وللدهر إحلاء وإمرار" لأن سبب الفراق هو المصيبة التي أنزلها الدهر ، ذلك الدهر الذي من طبعه تلك المفارقات والمتناقضات .. ألم يكن صخر بالأمس بيننا هو سبب سعدنا ومبعث فخرنا وتيهنا !!! ها هو قد صار سبب حزننا ...

ومن هنا فإنني أرى أنها وفقت كل التوفيق في ختم المقطع بهذه الجملة التي لها علاقات قوية بالمقطعين السابقين ، وهي ركن في المقطع الأخير .

خصائص شعرها :

وهذه القصيدة تصور لنا فن الخنساء ومنهجها الشعرى ..

فإلى جانب التتابع المذكور آنفا ، تجد فيها التكرار والتفصيل .

* — والتكرار له أهداف ترمى إليها الشاعرة .. والهدف هنا تعظيم شأن المرثى وبيان منزلته . وهى إذ تكرر الفعل "تبكى" ثلاث مرات كأنها تعجب من سوء حالها بفقد أخيها صخر .

* — ولايقتصر التكرار فى شعرها على الألفاظ ، بل إن مطالع قصائدها تتسم بهذا التكرار مثل قولها :

(يا عين جودى بالدموع — ياعين جودى بدمع .. عينى جودا بدمع .. ، إلخ ، يتكرر المطلع فى عدة قصائد ... وللنقاد وجهات نظر متباينة فى تفسير هذا التكرار (١)

* — وقد عنيت الخنساء بالجانب الموسيقى فى شعرها ، فكثر التصريع فى مطالع القصائد وداخلها مما يدل على غرامها بالموسيقى عموما .

---

(١) راجع مثلا : مطلع القصيدة العربية د / عبد الحليم حفنى ص ٢٣٣ وما بعدها ، والخنساء / لبنت الشاطئ ص ١١٢ ، والخنساء شاعرة بنى سليم للدكتور / الحينى ص ٢١٢ ، وقراءة فى الأدب القديم للدكتور / محمد أبو موسى ص ١٠٥ .

وقد وظفت الخنساء الموسيقى توظيفا جيدا يتناسب مع حالتها النفسية وقت إنشاد القصيدة ، وأكثرت من استعمال الترصيع فاشتهرت به وذلك مثل قولها : (١)

جَمٌّ فواضله ، تندى أنامله
كالبَدْر يجلو ولا يَخْفَى على الساري

رَدّاد عارية ، فكّاك عانية
كضيغم باسلٍ للقرن هَصّار

جَوّاب أودية ، حَمّالُ ألوية
سمح اليدين ، جواد غير مقتار

(١) ديوانها ص ٦٠ ، ٦١ .

الباب الثاني

النثر في العصر الجاهلي

النثر في العصر الجاهلي (*)

ونقصد بالنثر : النثر الفني ، وهو الكلام الذي يخضع لقوانين معينة ، بحيث تكون أفكاره منظمة ، معروضة عرضا جذابا ، حسنة الصياغة ، جيدة السبك ، جارية على قواعد النحو والصرف ، فإن اختلت هذه الشروط أو بعضها فلا يسمى نثرا فنيا ، ولا يعنى به الأدب .

وهذا النثر الفني منه ما عماده القلم وهو ما يسمى بالكتابة الفنية ، ومنه ما عماده اللسان مثل الخطابة .

أما الكتابة الفنية فليس هناك من الوثائق الجاهلية ما يدل على أن الجاهليين قد عرفوها . وهذا لاينفي معرفتهم الكتابة ، بل إنهم عرفوها ، ولكن نظرا لقلة عدد الكاتبين فقد استخدموها في الأغراض السياسية والتجارية .

وأما النثر الذي عماده اللسان فقد عرفه العرب ، إذ كانت لهم مجالس سَمَر ، يتجاذبون فيها أطراف الحديث ، ويتطرقون فيها إلى أمجاد القبيلة ومفاخرها ، وكان فيهم الكثير الذي يملك ناصية القول فيعرض ما يروق له ويمتع السامعين بأسلوب أخاذ .

ولعل هؤلاء الناثرين كانوا أكثر عددا من الشعراء ، غير أنه لم يصلنا من هذه المجالس والمسامرات ما يقفنا على خصائص تلك المحاورات والمسامرات ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن النثر لم يحظ من اهتمام الجاهليين بالقليل مما حظي به الشعر .

راجع : التوجيه الادبي ص ١٤ ، العصر الجاهلي ٣٩٨ ، في الادب الجاهلي / على الجندي ٢٥٨ الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ٥٨

"فهذا "قس بن ساعدة" خطيب العرب وقاضي خطبائها في عكاظ، ليس له إلا هذه الأسطر القليلة من خطبة لو لم يشهدها رسول الله ما تناقلها الرواة، وما اتصل خبرها بنا إلى اليوم" (١)

لقد "شغل العرب عنه بالشعر لاستطرافهم له، وغلبته على عقولهم، ولوفائه بما حرصوا عليه من تقييد مآثرهم، وتخليد مناقبهم وأيامهم، حتى مست الحاجة في ذلك الوقت إلى من يتخصص في حفظ أنساب القبائل والاحتياط لما يفوت على الكافة من جملة أخبارها فنشأت طبقة النسابين..." (٢)

وقد ورد في بطون الكتب أنواع من النثر الجاهلي منه : الخطب، الحكم، الأمثال، الوصايا، المفاخرات والمنافرات، سجع الكهان .

١ — الخطابة :

هي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة ..

دواعي الخطابة في العصر الجاهلي .

هناك دواع خاصة بالعرب الجاهليين دعت إلى بلوغ الخطابة درجة من النضج والكمال .

ومن أهم هذه الدواعي :

(١، ٢) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ص ٦٦، ٦٧ .

* ـ الاستعداد الفطري ، فملكة البيان متأصّلة فيهم ، وقد افتخروا بذلك وتنافسوا فيه ...

* ـ حاجتهم الضرورية إلى من يتحدث عنهم ، نظرًا لشيوع الأمية بينهم ، مع اضطرارهم إلى التنقل ، فاستعانوا بالخطابة لتقوم مقام الكتابة في عقد المحالفات والمصالحات ..

* ـ بعض القبائل كان حظ الشعر فيها ضعيفا فاستعاضت بالخطابة عن الشعر في مجال الحماسة والفخر وما إلى ذلك .

* ـ شن الغارات لأنه الأسباب مما يقتضي الدفاع عن النفس والعرض ، ثم إلى الانتقام .

أشهر خطباء الجاهلية

من أشهر خطبائهم :ـ

ـ كعب بن لؤي ، وهو الجد السابع للرسول "صلى الله عليه وسلم" ـ من أقدم الخطباء .

ـ قيس بن خارجه ، خطيب حرب داحس والغبراء .

ـ قس بن ساعدة الإيادي ، وقد أدركه النبي "صلى الله عليه وسلم" فرآه في سوق عكاظ .

ـ سحبان بن وائل ، الذي ضُرب به المثل في الفصاحة ، فقيل "أخطب من سحبان" .

ـ أكثم بن صيفي ، وقيس بن عاصم ـ سيد أهل الوبر ، وكلاهما من تميم .

عاداتهم وتقاليدهم في الخطابة

كان من عاداتهم : أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق العظام والمجامع الكبار ، وكانوا يخطبون وعليهم العمائم ، وبأيديهم المخاصر والقنا ...

وقد عابت الشعوبية العرب لاتخاذهم العصي والمخاصر في أثناء خطابتهم فرد عليهم الجاحظ وكان من رده .. "إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم ، ومنسوب إليهم حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم ، والمخاصر بأيديهم إلفًا لها وتوقعًا لبعض ما يوجب حملها ، والإشارة بها " (١)

ومما مدحوا به الخطيب :

جهارة الصوت ، وسعة الفم .. "قيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال : طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق ، وبعد الصوت"(٢)

ومدحوا فيه : ثبات الجنان ، وحضور البديهة ، وقلة التلفت ، وكثرة الريق .

ومما عابوا به الخطيب : (٣)

---

(١) البيان والتبيين ١١٧/٣ .

(٢) نفسه ١٢١/١ .

(٣) نفسه ٣٩/١ ، ٤٠ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٥٥ ، ٥٦ .

الارتعاش ، والعرق ، وكثرة السعال ، وحُبْسة اللسان مما يجعل الكلام ثقيلا ... ، كما عابوا فيه التنحنح ، والتعثر في الكلام ، والنظـــر في عيون الناس .. الخ .

نماذج للخطابة الجاهلية :

١ ــ خطبة قس بن ساعدة الإيادي في عكاظ

روى الأصفهاني أنه لما قدم وفد إياد على النبي " صلى اللـــه عليه وسلم " قال : "ما فعل قس بن ساعدة " ؟

قالوا : مات يا رسول الله

قال : "كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلـــم بكلام عليه حلاوة ، ما اجدني أحفظه" ، فقال رجل من القوم : أنـــا أحفظه يا رسول الله :

قال : "كيف سمعته يقول " ؟ قال سمعته يقول :

أيّها الناس : اسمعوا وَعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آتٍ ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، بحار تَزْخَر ، ونجـــوم تَزْهَر ، وضوء وظلام ، وبر وآثام ، ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تُركـــوا فناموا ؟ وإله قس ما على وجه الأرض دينٌ أفضل من دين قد أظلّكـــم زمانه ، وأدركم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ، ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

٢ — خطبة المأمور الحارثي (*)

روى أبو علي القالي بسنده عن أبي عبيدة قال :—

قعد المأمور الحارثي في نادي قومه ، فنظر إلى السماء والنجوم ثم فكر طويلا ، ثم قال : أرعوني أسماعكم ، وأصغوا إليّ قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، طمح (١) بالأهواء الأشَر (٢) ، وران على القلوب الكدَر (٣) ، وطخطخ (٤) الجهل النظر .

إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر : أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتغرب ، وقمر تطلعه النحور ، وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثرٍ ، وحُوَّل (٥) مُكْدٍ (٦) ، وشاب مختضَر (٧)

(*) رواه أبو علي "المأمون الحارثي" .
(١) طمح : ذهب . والطماح : النشوز والجماح .
(٢) الأشر — كالفرح — : المرح .
(٣) ران : غطى . الكدر : ضد الصفو .
(٤) الطخطخة : تسوية الشيء أو ضم بعضه الى بعض .
(٥) حُوَّل : شديد الاحتيال .
(٦) مكد : قليل الخير — من أكدى الرجل : بخل وقل خيره .
(٧) مختضر : ميت في فتوته ، يقال : اختضر الشاب : إذا مات في شبابه .

وَيَقَنٌ قد غبر (١) ، وراحلون لا يئوبون ، وموقوفون لا يُفْتَرُون ، ومطر مُرْسَل بِقَدَر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، ويُطلع الثمر ، وينبت الزَّهَرْ ، وماء ينفجر من الصخر الأيَّر (٢) ، فيصدع المدر (٣) عن أفنان الخضر ، فيحيي الأنام ، ويشبع السَّوام ، ويُنمي الأنعام ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبِّر المقدِّر البارئ المصوِّر .

يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة (٤) ، أنَّى تؤفكون (٥) ؟ وعن أي سبيل تَعْمَهُون (٦) ؟ وفي أي حَيْرةٍ تهيمون ؟ وإلى أي غاية تُوفِضون (٧) ؟ . . لو كُشِفَتِ الأغطيةُ عن القلوب ، وتجلَّت الغِشَاوة عن العيون ، لصرَّح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة .

٣ — النعمان بن المنذر يرد على كسرى :

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب

---

(١) اليَقَن : الشيخ الكبير . غَبَر : من الأضداد — بقي أو مضى .
(٢) الأيَّر : الشديد الصلب ، ويقال : صخرة يراء أيضا ولا يقال كذلك لنحو الماء والطين .
(٣) المدر : — محركة — قطع الطين اليابس .
(٤) النائرة : العداوة ، وهو إما أن يكون من الوصف بالمصدر ، أو في الكلام حذف ، أي ذات العداوة .
(٥) تؤفكون : تُصْرفون .
(٦) تعمهون : تتحيرون وتترددون بسبب الضلال .
(٧) توفضون : تسرعون .

وفضّلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها .

فقال كسرى — وأخذته عزة الملك — :

يا نُعمان ، لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت فى حالة من يقدم علىّ من وفود الأمم فوجدت للروم حظًا فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وإن لها دينًا يبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ، ويقيم جاهلها .

ورأيت للهند نحوًا من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها .... إلخ ..

ثم انتقد العرب قائلا :

ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها .. .. إلخ ما عاب به العرب .

قال النعمان :

أصلح الله الملك ، حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها ، إلا أن عندى جوابًا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمَّنى من غضبه نطقت به .

قال كسرى : قل فأنت آمن

قال النعمان :

أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل ، لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك .

وأما الأمم التى ذكرت ، فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا ؟

قال النعمان : بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

ثم أخذ النعمان فى تفسير وإثبات كل فضيلة من تلك الفضائل للعرب[1] .

إلى أن قال :

وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج .

أما قولك : إن أفضل طعامهم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له ، فعمدوا إلى أجلّها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وإنه لا شىء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها الا استبان فضلها عليه .

(١) راجع النص كاملا فى العقد الفريد ١ / ٢٧٥ وما بعدها .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمّتهم .

وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف[1] بالعسف .... إلخ ما قال .

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة في أهل اقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته وسرّجه إلى موضعه من الحيرة .

أغراض الخطابة الجاهلية

أغراض الخطابة كثيرة في العصر الجاهلي نذكر منها :-

١ — الحث على القتال ، أو الدعوة للسلام ونبذ الحروب وفض الخصومات .

٢ — الوعظ ، والدعوة إلى الاعتبار في ملكوت السموات والأرض ، والتحذير من مغبّة الضلال والجهل — كما في خطبة المأمور الحارثي السالفة .

---

(١) يروى : الوطث : وهو : الضرب الشديد بالرجل على الأرض . أما الوطف فهو طرد ك الطريدة ثم تكون في أثرها .

٣ — التعزية في عظيم من عظمائهم .

٤ — الوفادة على الملوك كخطبة النعمان بن المنذر السالفة .

٥ — الخطبة وقت الزواج كخطبة أبي طالب حين تزوج النبي — صلى الله عليه وسلم — السيدة خديجة ..

٦ — المباهاة بالقوة والخصال الحميدة ترهيبًا للخصوم .

هذه بعض أغراض الخطابة في العصر الجاهلي .

خصائصها : (1)

١ — جُلّ خطبهم — إن لم تكن كلها — مرتجلة فهم أهل بديهة ، وكان لهم ارتجال يُعَجلهم في كثير من الأمور عن تخير الألفاظ واجتناب الجفاء والخشونة . يعرض لقائلهم المعنى فيرسله فيما يحضر من اللفظ ، وقد يكون بالغًا إلى حد الغرابة والنفرة من ذوق أهل العصور المتأخرة مثال ذلك قول المأمون الحارثي (طخطخ الجهل المنظر) و (كالصخر الأيَّر) .

٢ — وتمتاز الخطابة بالإيجاز والخلو من اللحن ، ومن تكلف المحسنات اللفظية كالجناس والتورية — وما إلى ذلك — إلا ما جاء عفوا .

٣ — كانت طريقتهم في الأداء الالتجاء إلى الحقيقة غالبا .

٤ — ويمتاز أسلوبهم بقوة الأسر مع شيء من عنجهية البداوة .

---

(1) راجع / الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي / محمد هاشم عطية ص ٨٦ وما بعدها (بتصرف وإيجاز) .

٥ — أغلب المعاني فطرية ، مسايرة لطبائع الأشياء ، مشتقة من هذه المشاهدات البدوية ففيها السهولة والبساطة .

٦ — وتتميز المعاني أيضا بالصدق ومن هنا جاءت خالية من المبالغات، وذلك راجع لطباع البدو من حب الصراحة وإيثار الصدق .

٢ ـ الحِكَم والأَمْثَال (*)

الحِكَم جمع حِكْمة وهى : قول رائع يتضمن حكما صحيحا مسلما بــه وتتسم بالإيجاز .

والأمثال جمع مَثَل وهو : قول يشبه مضربه بمورده ، فهو يقصد بـه تشبيه الحال التى حكى فيها بالحال التى قيل بسببها . وتصـــدر الأمثال من وحى الفطرة السليمة والحس الصادق والتجربة الصائبة .

وقد اجتمع لعرب الجاهلية ما مكّنهم من الإجادة فى الحكـــم والأمثال إجادة بالغة .

فقد نظروا فى الحياة نظرات ثاقبة ، بحكم البيئة الصعبة التى تمرسوا فيها ، فأصابوا منها خبرات واسعة ، وأعانتهم سليقتهم على ذلك ، فهم أصحاب البيان .

وليس شرطا "أن يكون أصحاب الحكمة من المسنّين الذيـــن مدّت لهم الحياة فى حبال العمر ، ولا من الذين اصطبغوا بصبغـــة تلك الأحداث ، أو شاركوا فيها ، وإنما تكفى النفس الحساســـة والبصيرة النافذة التى تستطيع أن تنفذ إلى أغوار النفس وأســـرار الحياة وأخلاق البشر وإن قصرت بأصحابها الأعمار" .

وقد تجىء الحكمة فى الشعر ، وممن عرف بالحكمة من الشعـــراء الجاهليين : أمية بن أبى الصلت ، زهير بن أبى سلمى ، طَرفة بـــن العَبْد وغيرهم .

(*) راجع / أسس النقد الأدبى / أحمد بدوى ، الأدب العربـــى وتاريخه / هاشم عطية ، فى الأدب الجاهلى على الجندى .

ومن أشهر حكماء العرب : أكثم بن صيفي التميمي ، عامر بن الظرب العدواني ، وهما من المُعَمَّرين .

ومن أقوال أكثم : " .. إذا فَزِعَ الفؤاد ذهب الرُّقاد . ليس من العدل سرعة العذل . لاتطمع في كل ما تسمع . رُبَّ قول أنفذ من صول . حَافِظْ على الصديق ولو في الحريق " .

ومن أقوال عامر بن الظرب العدواني :

"رب زارع لنفسه حاصد سواه . من طلب شيئا وجده ، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه " .

وأما الأمثال فكثيرة عند الجاهليين ، ولابد للمثل من أصل يكون قد جاء بسببه سواء كان حقيقيا ، أم فرضيا .

فمن الأمثال الحقيقية : "تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثدييها " يُضْرَب لترفّع الكريم عن ملابسة الخسيسة ، قائله : الحرث بن سليل الأسدي .

ومن الأمثال الفرضية : "كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ؟ " يُضرب لمن لا يُؤمن جانبه ، فقد جُرِّبَتْ عنه الخيانة ، ونقض العهد ، ويأتي هذا في خرافة الحية والفأس . وذلك "أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبا منهما واد فيه حية قد حمته من كل أحد . فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أني أتيت هذا الوادي المكلئ فرعيت فيه إبلي وأصلحتها . فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطن .

فهبط ذلك الوادى ، فرعى إبله زماناً ، ثم إن الحية لدغتــــه فقتلته .

فقال أخوه : ما فى الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحيــــة فأقتلها ، أو لأتبعن أخى ، فهبط ذلك الوادى ، فطلب الحيــــة ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أنى قتلت أخاك ، فهل لك فى الصلــــح ، فأدعك بهذا الوادى ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت دينارا كل يوم .

قال : أفاعلةٌ أنتِ ؟ قالت : نعم . قال : فإنى أفعل

فحلف لها وأعطاها المواثيق : لا يضيرها . وجعلت تعطيه كــل يوم دينارا ، فكثُر ماله ، وَنَمَتْ إبله ، حتى كان من أحسن الناس حــالا ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتــــل أخى ؟

فعمد إلى فأس ، فأخذها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعهــــا فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، فرمى الفأس بالجبل فوقع فـــوق جُحْرها ، فأثر فيه .

فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولمــــا رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال :

هل لك أن نتوافق ونعود إلى ما كنا عليه ؟

فقالت : "كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك" (١)

---

(١) أمثال العرب للمفضل الضبى ص ٨١ .

وهذه الأمثال بمثابة أقاصيص توافرت فيها عناصر الأقصوصة مما يدل على أن العرب قد عرفوا القصة ..

وقد عني القدماء بجمع هذه الأمثال وشرحها ومن أشهر الكتب في هذا المجال : مَجْمَع الأمثال للميداني ، أمثال العرب للمفضل الضبي ، جمهرة الأمثال للعسكري ، وغيرها ..

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ، وصدق تمثيله للحياة ، وتصويره لها تصويرًا تاما ..

ويمكنك التعرف على جوانب من حياة أمة من الأمم من خلال أمثالها .

٣ — الوصايا (١)

جمع وصية ، وهي قول بليغ مؤثر يتضمن حثا على سلوك طيب نافع حبًّا فيمن تُوجَّه إليه الوصية ، ورغبةً في رفعة شأنه ، وجلب الخير له .

وقد تكون صادرة من حكيم لقومه ، أو من سيد لعشيرته ، أو من أب لابنه ، أو من أم لابنتها ..

ومن الوصايا المشهورة وصية "ذي الإصبع العدواني" لابنه "أسيد" — يقول له :—

"يا بُنَيّ ، إن أباك قد فَنِيَ وهو حَيّ ، وعاش حتى سَئِم العَيْش ، وإنّي مُوصيك بما إنْ حفظتَه بَلَغْتَ في قومك ما بلغته فاحفَظْ عني :

ألِنْ جانبَك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابْسُطْ لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأْثِر عليهم بشيء يسوّدُوك ، وأَكْرِم صغارَهم كما تكرم كبارَهم ، يكرمْك كبارُهم ، ويكبر على مودتك صغارُهم ، واسمحْ بمالك ، واحْمِ حريمَك ، وأَعزز جارَك ، وأَعِنْ من استعان بك ، وأَكْرِم ضيفَك ، وأَسرع النهضة في الصّريخ فإنّ لك أَجَلًا لا يعدوك ، وصُنْ وجْهَك عن مسألة أحدٍ شيئًا ، فبذلك يتم سؤْدُدُك"

نماذج للوصايا الجاهلية

١ — ومن الوصايا المشهورة ما أوصت به أُمَامةُ بنت الحارث — زوج عوف بن محلّم الشيباني — ابنتها حينما زُفّت إلى زوجها

---

(١) راجع البيان والتبين ٢ / ٧ ، والأدب العربي وتاريخه / محمد هاشم عطية ٧٨ ، في الأدب الجاهلي على الجندي ٢٦٨ وغيرها .

"الحارث بن عمرو ملك كندة" تقول لها :

[أى بنية . إن الوصيّة لو تُركت لفضل أدبٍ تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل . أى بنية : إنك فارقت الجوّ الذى منه خرجْت، وخلّفت العُشّ الذى فيه درجْت، إلى وكْرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فكونى له أَمَةً يكن لك عبْدا .

واحفظى له خصالا عشْرًا يكن لك ذُخرا

أما الأولى والثانية : فالخشوعُ له بالقناعة، وحُسْن السمع له والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإنّ تواتُرَ الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مَغْضَبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله، والإرعاءُ على حَشَمه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تَعْصِينَ له أمرا، ولا تُفْشِينَّ له سرا فإنك إن عصيت أمره أوْغرْتِ صدره، وإن أفشيتِ سرّه لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا]

وهناك وصايا كثيرة ذات قيم أخلاقية، وتتسم بالصدق فى التعبير وجمال العبارات ورشاقتها، ويغلب عليها السجع ...

٤ — المفاخرات والمنافرات[1]

المفاخرة : محاورة كلامية بين رجلين أو أكثر، فيها يتباهى كل من المتفاخرين بالأحساب والأنساب، ويشيد بماله من خصال، وما قام به من جلائل الأعمال .. وكانت تحدث بين القبائل، أو بين البطون داخل القبيلة الواحدة ..

والمنافرة : كالمفاخرة — وهي التحاكم إلى السادة والأشراف من حكام العرب — ليفصلوا بين المتنافرين، ويقضوا بينهما وينال الغالب المحكوم له جائزة يدفعها المغلوب .

غير أن حكام العرب كانوا — في الغالب — يقومون بالصلح بين المتنافرين، ويحسمون النزاع بينهما .

مثال ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين نفرتا إليه . فكان من قوله :

" .. يا بني قصي — يقصد الطائفتين — أنتم كغُصْنَي شجرة، أيّهما كُسر أوْحَشَ صاحبه، والسيف لا يُصان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه .. إلخ "

فأذعن له الفريقان وتصالحا .

ومن المنافرات المشهورة في الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل [2]

---

(١) راجع/ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي / محمد هاشم عطية ص ٧٩، ٨٠، في الأدب الجاهلي / علي الجندي ص ٢٦٣

(٢) عامر بن الطفيل شاعر فارس، من فتاك العرب، وفد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يريد أن يَغدر به، ولم يسلم، مات سنة ١١هـ .

وعلقمة بن علاثة[1] العامريين ٠

وذلك أنه لما أسنّ أبو براء عامر بن مالك ، تنازع الرياسة عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة ٠ فقال علقمة : إن شئت نافرتك فقال عامر : قد شئت ٠

فكان مما قاله عامر :

"والله لأنا أشرفُ منك حسبًا ، وأثبتُ منك نسبًا ، وأطول قصبا "

فقال علقمة :

" والله لأنا خيرٌ منك ليلاً ونهارا ، وأنا أشرف منك أمة ، واطول قمة ، وأبعد همة "

وطال الحوار بينهما ، فتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما ، وأبى الناس أن يحكموا بينهما ، خيفة أن يقع في حَيَّيْهما الشر ، حتى دفعا إلى هرم بن قطبة الفزارى ، فلما علم بأمرهما أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تفاديا من الفتنة ٠ وجعل يطاولهما ويخوف كل واحد منهما من صاحبه ، حتى لم يبق لواحد منهما هم سوى أن يسوى في حكمه بينهما ، ثم قال لهما — والناس شهود — : أنتما كَرُكْبَتي البعير تقعان إلى الارض معا وتقومان معا "

فرضيا بقوله ، وانصرفا عنه إلى حييهما ٠

وقد عُمّر "هرم" إلى أيام عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال عمر :

---

(١) علقمة بن علاثة : من أشراف قومه في الجاهلية ، أسلم ثم ارتد ، وأعيد إلى الإسلام، ت سنة ٢٠هـ تقريبا ٠

أيهما كنت مَتَقّرا ؟

فقال : يا أمير المؤمنين : لو قلتها الآن لعادت جذعــــة

(يعني الفتنة أو الحرب)

فقال له عمر : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

٥ — سجع الكهان (*)

كانت في الجاهلية طائفة من الناس تزعم أنها تعرف الغيب عن طريق الجن، وكان لهذه الطائفة قداسة خاصة ..

وكان الناس يلجأون إليهم في كل شئونهم، فيحتكمون إليهم في المنازعات والمنافرات، ويستشيرونهم في أمورهم المستقبلة، ويعرضون عليهم رؤاهم وأحلامهم ...

ومن أشهر هؤلاء الكهان : من الرجال : سطيح الذئبي، المأمور الحارثي، عزى سلمة ...

ومن النساء : طريفة الكاهنة، وفاطمة الخثعمية، والزرقاء بنت زهير، وزبراء كاهنة بني رئام .

وكان الكهان يعمدون في حديثهم إلى سجع مصطنع، فيه غموض وإبهام، وهذا مما يلقي الرعب في قلوب السامعين من جهة، ويضفي على الكاهن قداسة من جهة أخرى .

نماذج من سجع الكهان

١ — يقال (١) : إن زبراء الكاهنة أنذرت قومها غارة عليهم فقالت :

(*) راجع / البيان والتبين للجاحظ، الأمالي لأبي علي القالي، في الأدب الجاهلي / على الجندي، العصر الجاهلي / شوقي ضيف .

(١) الأمالي ١/١٢٦ .

"واللَّوْح [١] الخَافِق ، واللَّيل الغَاسِق ، والصُّبح الشَّارِق ، والنَّجْم الطارق ، والمزن الوادق [٢] . ان شجر الوادى ليأدوا [٣] ختـــلا ويَحْرِق أنيابا [٤] عصلا [٥] ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لاتجدون عنه معلا [٦] ."

٢ — ويروى أن "شقًّا" و"سطيحا" اتفقا على تعبير رؤيا رآها "ربيعة بن نصر اللخمى" أحد ملوك العرب ، فأخبره سطيح بإغـــارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف ، يبعث على التردد فى تصديقه إذ قال :

"أحلف بما بين الحَرَّتين من حَنَش ، ليهبطن أرضَكم الحَبَـــش ، وليملكن ما بين أَبْيَن الى جَرَش" وقال شق : "أحلف بين الحَرَّتين من إنسان ، ليهبطن أرضَكم السودان ، وليملكن ما بين أبين إلـــى نَجْران"

---

(١) اللوح : الريح .
(٢) الوادق : المطر .
(٣) يأدوا : يختل .
(٤) يحرق أنيابا : يحك بعضها ببعض .
(٥) عصلا : معوجة .
(٦) : معلا : منجى .

ومن ابرز خصائص هذا اللون من النثر :ـ

١ ـ أنهم كانوا يعمدون إلى هذا السجع المتكلف، والجمل القصيرة .

٢ ـ أنهم قصدوا إلى الإبهام والتعمية والغموض، حتى إنهم ـ في الغالب ـ لم يكونوا يفهمون ما يقولون، وإنما يأتون بالألفاظ يرصّونها رصّا، مستغلين الحالة النفسية للسامعين مثلما يفعل قارئو الفنجان، وضاربو الودع والرمل في أيامنا هذه .

خصائص النثر الجاهلي

يمكننا بعد هذا العرض لألوان النثر الجاهلي أن نلخص خصائصه في :

أولا : المعاني

١ ـ يغلب عليها الصدق والوضوح والبساطة والصراحة بحيث لايحتاج نثرهم إلى كد الذهن أو التعمق في الخيال، ويكاد يقتصر غموض المعاني على سجع الكهان الذين يعمدون إلى ذلك ويقصدونه قصدا .

٢ ـ المعاني مستمدة من البيئة، وهي فطرية تتسق وطبائع الأشياء .

٣ ـ تجلت العصبية في النثر الجاهلي، في الفخر بالأحساب والأنساب في المفاخرات والمنافرات .

٤ — ظهر الحب والمودة والرغبة في الخير لأبناء الأسـرة أو العشيرة في الوصايا والنصائح .

ثانيا : الألفاظ والأساليب

١ — غلبت عليها القوة والجزالة ، فكانوا يعنون بالألفاظ عناية خاصة .

٢ — غلب على أساليبهم الإيجاز والتركيز ولا سيما في الحكم والأمثال .

٣ — ورد في نثرهم بعض المحسنات البديعية غير المتكلفة

٤ — تخلل نثرهم بعض أبيات شعرية أضفت على الكلام جمالا وروعة ، ولا سيما في مجال الخطابة .

٥ — قِصَر الجمل وخاصة في مجال الحكم والأمثال وسجع الكهان .

تم بحمد الله

أهم المراجــــــع

الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي	محمد هاشم عطية
أصول النقد الأدبي	أحمد الشايب
الأغاني للاصفهاني	ط دار الكتب
البيان والتبيين للجاحظ	تحقيق هارون
تاريخ آداب العرب	للرافعي
تاريخ آداب اللغة العربية	جورجي زيدان
تاريخ الأدب العربي	كارل بروكلمان
التوجيه الأدبي	طه حسين وآخرون
ديوان خفاف بن ندبة	
ديوان الخنساء	
ديوان العباس بن مرداس	
شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري	
شعر تأبط شرا	طبع العراق
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
طبقات الشعراء لابن سلام	
العصر الجاهلي	د / شوقي ضيف
العقد الفريد لابن عبد ربه	ط بيروت .

* هناك مراجع أخرى كثيرة مذكورة في أماكنها من البحث

العمدة لابن رشيق	
فى تاريخ الأدب الجاهلى	د / على الجندى
فى الأدب الجاهلى	د / طه حسين
مصادر الشعر الجاهلى	د / ناصر الدين الأسد
معلقات العرب	د / بدوى طبانة
من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى	د / سعد ظلام
الوساطة للقاضى الجرجانى	

فهرس الكتـــــــاب